مصارع الخلفاء

مشاهد رائعة ينقلها عن التاريخ

كامل كيلانى

مؤلف « مختار القصص » و « نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى »
وشارح « رسالة الغفران »

الطبعة الأولى

« سنة ١٩٢٩ م »

عنيت بنشره

مكتبة الوفد لصاحبها محمد محمود ببارع الفلكي بباب اللوق بالقاهرة

(دار العصور للطبع والنشر بشارع الخليج المصرى بالظاهر بمصر)

مصارع الخلفاء

مشاهد رائعة نقلها عن التاريخ

كامل كيلانى

مؤلف « مختار القصص » و « نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى »
وشارح « رسالة الغفران »

الطبعة الأولى

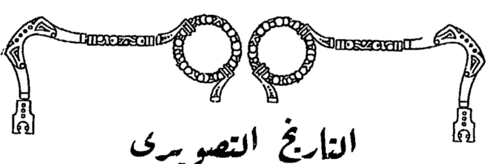
١٩٢٩ م .

عنيت بنشره

مكتبة الوفد لصاحبها محمد محمود بشارع الفلكي بباب اللوق بالقاهرة

(دار العصور للطبع والنشر بشارع الخليج المصرى بالظاهر بمصر)

فهرست



التاريخ التصويري

قلْ يا أرقَّ الكاتبين، فأنتَ مَنْ ❊ يُلفَى بكلِّ طَريقةٍ مَشغُولاَ
صَوِّرْ لنا الماضي تَزِدْ أعمارَهُ ❊ عُمْراً، وتُشعِرُنا الحياةَ الأُولى
ما كُلُّ مَنْ عدَّ المؤرِّخَ وَصفهُ ❊ أَثَرٌ تَزيدُ بهِ المآثِرُ طُولاَ
اوْجزْتَ إيجازَ البَخيلِ، وإنّمَا ❊ كان الغِنَى في طَيِّهِ مَحْمُولاَ
في كلِّ سطرٍ للوقائعِ معرَضٌ ❊ وبكلِّ فَصْلٍ ما يُعَدُّ فُصولاَ
نتأَمّلُ الفنَّانَ في إبداعِهِ ❊ كالجوهريِّ تأَنُّقــاً وأُصُولاَ
ونُطَالِعُ الإِحسانَ في آياتِهِ ❊ مِنْ كلِّ فاتنةٍ تَرُدُّ عَجُولاَ
ونُصاحِبُ التاريخَ في أيامِهِ ❊ صُوَراً، ونَلْمِسُ سِرَّهُ المنقولاَ
شأْنُ الأديبِ الألمعيِّ بيانُهُ ❊ يَغْدُو الجمالُ بِرُوحِهِ مأهولاَ

❊❊❊

راحتْ «مَصَارِعُهُمْ» وقدتركَتْ لنا ❊ عِبَراً تُسائِلُ أنفُساً وعقُولاَ
وَمَضَوا، وما كانوا سوَى خَبَرٍ لَهُمْ ❊ فاذا المُقاتِلُ صاحبَ المَقتُولاَ
حتّى إذا هَمّتْ براعةُ (كامل) ❊ صار الدّفينُ مُمثَّلاً مَوْصُولاَ
و (الفَنُّ) أَقْدَرُ مَنْ يُعيدُ مَعَالِماً ❊ دَرَسَتْ، وأَكْرَمُ مَنْ يَشُوقُ مَلُولاَ

أبو شادي

تصدير

يمثل هذا الكتاب الطريف حلقة من الدراسات المتنوعة التى يقوم بها الكاتب المتفنن الكبير الأستاذ كامل كيلانى و يتتبعها جمهور الأدباء بشغف وافر فى مصر وفى غيرها من الأقطار العربية .

وقد كان من حظى - بالأمس القريب - إذاعة تصنيفه الجميل (مختار القصص) الذى لاقى من الاقبال العظيم عليه بين محبى الأدب ما هو جدير به ، وما هو حرى بفخر مؤلفه النابغة . فشجعنى ذلك على إصدار هذا الكتاب التصويرى التاريخى الذى يدل عنوانه على موضوعه ، كما تفسر إلمامة الاستاذ كيلانى حكمة وضعه أحسن تفسير .

وبديهى أنه ما كان يشق على الأستاذ المؤلف أن يتوسع فى الشرح والبيان فيتضخم تصنيفه : ولكن مثله يربأ بقلمه عن ذلك ؛ ويؤثر أن يقدم لنا - في كتابه البديع - الطريف من البحث في الطريف من الأسلوب الموجز البليغ ، وفي طى كل هذا من العبر التاريخية ومن التصوير للأخلاق والأهواء الانسانية وتقلب

القدر مافيه متعة و فائدة للقارئين لا تقدر بثمن

***

وانى أنتهز مناسبة هذا « التصدير » فأشكر للأدباء الكثيرين في مصر و خارجها - تشجيعهم القيم ، وأعدهم ببذلى غاية ما فى وسعى من مجهود لاذاعة خير التآليف العصرية التى تتلقاها (مكتبة الوفد) ، حتى تبقى سلسلة مطبوعاتها الأدبية موضع فخري و مبعث رضائهم دائماً ؟

محمد محمود

القاهرة فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٢٩ « صاحب مكتبة الوفد »



إلمامة

(١)

ليس أروع للنفس من تمثل مصارع الناس والاستماع اليهم فى ساعاتهم الأخيرة وتعرف ما قالوه وقت حلول الأجل ، وآخر ما تفوهوا به من الكلم قبل أن يفارقوا هذا العالم — خيره وشره — فراقا أبديا لا عودة لهم بعده .

واذا كان هذا هو شعورنا بجلال الموت وروعته ، فلا جرم أنه يعظم ويزداد الى أقصى حد حين يقترن بعظمة الملك وأبهته ، وليس أشجى للنفس من تمثل مصرع خليفة أو قائد كبير أو شاعر عظيم ، من اولئك الذين تركوا فى هذا العالم أكبر أثر ونقشوا فى تاريخه صفحات لا يمحوها الزمن .

ولعل خير ساعة يستعرض فيها المتأمل تاريخ حياة انسان هى ساعة احتضاره ، فانه يرى ـ حينئذ ـ أمام كل صورة من صور الضعف صورة أخرى من صور القوة ، ويلمح بجانب تلك الصور المشجية الحزينة ما يقابلها من الصور الماضية البسامة المشرقة .

ألا ترى الى «الوليد الثانى» مثلا فى موقفيه امام المصحف : يخرقه بالنشاب - وهو فى جبروته وطغيانه - ثم يقرأه معتبرا والناس يحاصرونه وليس بينه و بين الموت الادقائق معدودة !

ألا ترى الى عثمان - وهو الشيخ الوقور - كيف يصرع ويأبى عليه الثائرون أن يدفن، وتظل جثته كذلك ثلاثة أيام، ثم يدفن خلسة - بعد أن يحمل على باب و يسرع الناس به خوفا من الثائرين فيقرع رأسه الباب ؟ (١)

ألا ترى الى الامين - وهومحاصر مهموم - يطلب الخلاص أو النجدة - فلا يجد الى ذلك سبيلا - بعد أن ضيق عليه طاهر سبيل النجاة - وقد علمت ما كان له من عز وسلطان وبطش ؟

ألا ترى اليه يجيئه - من قبل - نبأ هزيمة قائده «على بن عيسى» وقتله - والامين حينئذ على الشط يصيد السمك - فيقول لمحدثه : -

« ويلك، دعنى فان كوثرا قد اصطاد سمكتين وأنا ما اصطدت شيئا بعد ؟ » .

---

(١) قال أحد حملته :-

« حملناه على باب وإن رأسه لتقرع الباب لاسراعنا به، وإن بنا من الخوف لأمرا عظيما، حتى واريناه فى قبره . »

فانظر الى تلك الخاتمة المروعة التي انتهت بها حياة هذا المستهتر الباطش العزيز ، وهو يستغيث فلا يغاث ويطلب النجدة فلا يأبه له أحد ، ثم يذبح من قفاه فيذكرنا بقول شاعر المعرة :

وما أجل عظيم من رجالهم … اذا تؤمل - إلا ماعز ذبحا

وتمثله - في صورة أخرى - باطشا ولاهيا ، ومترنح الأعطاف زهوا ، ومصعرا خده تيها ، وقابضا على ناصية الخلق متصرفا في أرزاقهم وأعمارهم ، تعنو له الجباه وتنحني أمامه الرءوس وينشده أبو نواس قوله :-

«قد كنت خفتك ثم أمنني … من أن أخافك ، خوفك الله»

فسبحان المعز المذل .

هو الموت ، مثر عنده مثل مكثر … وراكب نهج مثل آخر ناكب

ودرع الفتى - في حكمه - درع غادة … وأبيات كسرى من بيوت العناكب!

(٣)

هذه التأملات هي الباعث الأول الذي حداني لاخراج هذا الكتاب « مصارع الخلفاء » والكتاب الذي يليه « مصارع الأعيان » وقد حاولت أن أدون فيهما طائفة من أروع المشاهد التي ذكرها لنا التاريخ ، كما حاولت أن أرسم في ذهن القارىء صورا واضحة مشرقة بالحياة ، ولعلي وفقت في هذه المحاولة بعض التوفيق ؟

كامل كيلاني

يَمُرُّ الحولُ — بعدَ الحَوْلِ — عَنِّى

وتلكَ « مصارعُ الأَقْوامِ » حولى،

كأنّى بالأُلَى حَفَرُوا لجارِى

وقَدْ اخَذُوا المعاولَ ، وانْتَحَوْا لى.

***

والدَّهْرُ يُنْسِى كَمِىَّ الحرب صارمهُ

ودرعَه وفتاةَ الحىِّ مِجْوَلَها؛

ويَسْتَرِدُّ من النفس التى شَرُفَتْ

ما كانَ فى سالِفِ الأَيّام خَوَّلَهَا؛

« أبو العلاء »

مصرع عمر (١)

« هم ضربوا « حيدرا (٢) » ساجدا
وحسبك من عمر اذ طعن »

ابو العلاء

« ودخل « أبو لؤلؤة » فى الناس؛ فى يده خنجر له رأسان ، فضرب عمر ست ضربات إحداهن تحت سرته وهى التي قتلته » « المؤرخون »

وصف (١)

رجل أبيض تعلوه حمرة ، أشيب أصلع ، يصفر لحيته بالحناء ويرجل رأسه ، أعسر أيسر ، طوال يمشى كأنه راكب

قال بعض من رآه :

رأيت عمر يأتى العيد حافيا ، أعسر ، أيسر ، متلببا برداء

---

(١) عمر بن الخطاب ، ثانى الخلفاء الراشدين ، أسلم بعد خمسة وأربعين رجلا وإحدى وعشرين امرأة ، بويع بالخلافة بعد وفاة أبى بكر بيوم واحد ؛ ومكث فى الخلافة عشر سنوات وستة أشهر وأياماً ثمانية

(٢) على بن أبى طالب

قطرىّ ، مشرفا على الناس — كأنه على دابة ، وهو يقول :

« أيها الناس هاجروا ، ولا تهجَّروا »

(٢) أخلاقه

« يا أبا محمد ! قد رمقته . فرأيتنى اذا غضبت على الرجل فى الشيء أرانى الرضا عنه ، واذا لنت له ، أرانى الشدة عليه » « أبو بكر »

* * *

هذا هو أظهر أخلاق عمر — رضى الله عنه — الميل الشديد الى التوازن ، والمساواة . يخشى أن يفسد الناس ، اذا لان ، أو يرغمهم ويذلهم اذا اشتد ، فيسلك طريقا وسطا بين الشدة واللين

لقد كان — رحمه الله — ورعا متقشفا زاهدا ، كما كان حكيما واسع الخبرة باخلاق العرب ، قوي الشكيمة ، لا يتردد لحظة فى احقاق الحق وانصاف المظلوم من ظالمه ، يرى أن أحقر أفراد الرعية وأكبر أمراء الدولة سواء أمام الحق ، وهو صاحب القولة المشهورة فى احدى خطبه : «من ظلمه أمير فلا إمرة عليه دونى!»

وقد روى لنا التاريخ عن سهره على رعيته وعدله وانصافه وديمقراطيته ، شيئا كثيرا ، نجتزئ منه بما رواه الغزالى اذ يقول:

« أرسل قيصر رسولا الى عمر بن الخطاب ، لينظر أحواله ويشاهد أفعاله ، فلما دخل المدينة سأل أهلها وقال :

«اين ملككم ؟ » فقالوا : « مالنا ملك ، بل لنا أمير قد خرج الى ظاهر المدينة ! » فخرج الرسول فى طلبه فرآه نائما في الشمس على الأرض فوق الرمل الحار وقد وضع درته كالوسادة ، والعرق يسقط من جبينه الى أن بل الارض : فلما رآه على هذه الحالة ، وقع الخشوع في قلبه وقال : « رجل جميع الملوك لايقر لهم قرار من هيبته ، وتكون هذه حالته ! ولكنك ياعمر عدلت فنمت ، وملكنا يجور ، فلا جرم انه لايزال ساهراً خائفاً ! »

(٣) لماذا قتل ؟

ولهذا الخبر أضراب وأشباه فى سيرته الحافلة ، وقد كان من الطبيعى جداً ان تنتهى حياة هذا العادل الساهر على مصالح رعيته بسلام، كما انتهت حياة أبى بكر - رضى الله عنهما - ومهما يجهد الباحث نفسه فى تلمس أسباب وجيهة يعلل بها مقتله ؛ فلن يظفر من ذلك بشىء ذى خطر ، لقد عدل عمر ، والعدل أساس الملك ، وقام فى الناس مثالا عاليا للشرف والنزاهة والبعد عن التحيز ؛ وتضحية كل ماأوتى من عزم وقوة وصحة ووقت ومال في سبيل النفع والخير العام ، فلم يكن يدور بخلد انسان عاقل أن يغتال حياة هذا الخليفة النزيه العادل المحسن ، الا اذا جاز فى العقل أن يفكر السارى فى تحطيم مصباحه الذى ينير له الطريق ، أو يقدم القاطن على هدم داره وتخريب بيته بيده ! لذلك نستبعد أن تكون هناك مؤامرة

مدبرة ضده و إن كنا لا نجزم باستحالة حدوثها !

وأوجز مانعلل بهموته أن نزوة طائشة ، قامت برأس غلام مأفون . قضت على حياة هذا المصلح الكبير !

(٤) كيف كان مصرعه ؟

قالوا :

خرج « عمر بن الخطاب » يوما يطوف فى السوق ، فلقيه « أبو لؤلؤة » ـ غلام « المغيرة بن شعبة » ـ فقال : « ياأمير المؤمنين! أعدنى على المغيرة بن شعبة ، فان علىّ خراجا كثيرا ! »

قال : « وكم خراجك؟ » قال : « درهمان فى كل يوم! » قال : « وايش صناعتك ؟ » قال : « نجار ، نقاش ، حداد ! » قال : « فما أرى خراجك بكثير على ماتصنع من الأعمال ، قدبلغنى انك تقول : « لو أردت أن أعمل رحا تطحن بالريح ، فعلت ! » قال : « نعم ! » قال : « فاعمل لى رحا ! »

***

وكأنما نبهت فى نفسه هذه الجملة خاطرا شريرا كان غائبا عنه وحركت فيها نزوة من نزوات الاجرام ، فقال موريا:

« إن عشت لأعملن لك رحا يتحدث بها من فى المشرق والمغرب » .

ثم انصرف عنه ، فقال عمر ! « لقد توعدنى العبد ! »

قالوا ـ بعد كلام لا يتسع هذا المقام إلى تحقيقه ومناقشته ـ :
« وقد مر على هذا الوعد ثلاثة أيام » ـ:

(٥) يوم المصرع !

« جسد لفف فى أكفانه رحمة الله على ذاك الجسد »
« عاتكة »

وفى صبيحة اليوم التالى ، خرج عمر إلى صلاة الصبح ، وكان يوكل بالرجال صفوفا يسوونها ، فاذا استوت ، جاء هو فكبر !

ودخل « أبو لؤلؤة » فى الناس ؛ فى يده خنجر ، له رأسان ، نصابه فى وسطه فضرب « عمر » ست ضربات ، احداهن تحت سرته ، وهى التى قتلته ، وقتل معه « كليب بن أبى البكير الليثى » ـ وكان خلفه ـ فلما وجد عمر حر السلاح ؛ سقط وقال: «أفي الناس عبد الرحمن بن عوف ؟ » قالوا : « نعم هو ذا ؟ » قال « فتقدم فصل بالناس» ـ وعمر طريح ـ ثم احتمل فأدخل داره ، فنادى عبد الله بن عمر ، وقال : « اخرج فانظر من قتلني ! » قال : « يا أمير المؤمنين ! قتلك « أبو لؤلؤة » غلام المغيرة بن شعبة ، قالوا : « الحمد الله أن لم يقتله رجل سجد لله سجدة ! »

ثم جعل الناس يدخلون عليه، المهاجرون والأنصار، فيقول لهم : « أعن ملأ منكم كان هذا ؟» فيقولون « معاذ الله ! »

قالوا :

ودعوا له بالطبيب فلم يجد للقضاء فيه حيلة ، وتوفى ليلة الأربعاء ـ لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٢٣ ـ ودفن بكرة يوم الأربعاء فى حجرة عائشة مع صاحبيه ، حسبما أوصى !

***

جزى الله خيرا من أمير؛ وباركت يد الله في ذاك الأديم الممزق

فمن يسع أو يركب جناحى نعامة ليدرك ما أوتيت بالأمس يسبق

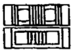
قضيت أمورا ، ثم غادرت بعدها بوائج فى أكمامها لم تفتق

أبعد قتيل بالمدينة أظلمت له الأرض يهتز العضاه بأسوق

تظل الحصان البكر يلقي جنينها نثا خبر فوق المطى معلق

وما كنت أخشى أن تكون وفاته

بكف «سبنتى (١)» أزرق العين مطرق (٢)



(١) نمر جرئ (٢) وضيع

مصرع عثمان (١)

« كنت أحد حملة عثمان ـ حين قتل ـ حملناه على باب ، وإن رأسه لتقرع الباب لاسراعنا به ، وان بنا من الخوف لأمرا عظيما ، حتى واريناه فى قبره فى حش كوكب »

تمهيد

ما ذكرت مصرع عثمان الا ذكرت الهول ، وانتابني غم شديد ،

---

(١) ثالث الخلفاء الراشدين ، ولى الخلافة سنة ٢٤ وقتل سنة ٣٥ ﻫ وعمره حينئذ ٨٢ سنة ، وفتحت فى عهده برقة وطرابلس الغرب والنوبة و جزيرة قبرس ، وبلاد جنوبى التركستان ، وقد بويع لعشر بقين من المحرم ، بعد مقتل عمر بثلاث ليال ، قالوا :

« ولما بايعه اهل الشورى ، خرج وهو أشدهم كآبة ، فأتى منبر رسول الله فخطب الناس ، فحمد الله وصلى على النبي وقال .

« انكم فى دار قلعة ، وفى بقية أعمار ، فبادروا آجالكم ، بخير ما تقدرون عليه الخ » وهي خطبة مملوءة زهدا وورعا

« صورته »

مربوع ، ليس بالقصير ولا بالطويل ، حسن الوجه ، أسمر اللون ، رقيق البشرة بوجهه نكتات من جدرى ، حسن الشعر كبيره ، شعره يكسو ذراعيه ، عظيم اللحية يصفرها . أصلع ، أروح الرجلين ، عظيم الكراديس ، عظيم ما بين المنكبين .

على هذه الضحية التى قادها الى الحتف وأوردها مواردالتلف، بطانة السوء ورواد المغانم. وطلاب المآرب الذاتية الحقيرة! هذا هو المقتول ظلما وعدوانا ، المسفوك دمه بسبب حماقة جماعة من المخرقين الذين لاهم لهم الا قضاء لبانات أو شفاء حزازات

***

لقد جبل الناس على ظلم من لا يظلم . والثورة على من يحدب عليهم و يرجو لهم الخير

وهم لمن لان لهم جانبه   ألذع من حيات أنباث السفا

ولقد كان عثمان – رضى الله عنه – يعرف فى الناس هذا الخلق ؛ ويعلم من طباعهم كل ما يعلمه الحصيف الألمعى ؛ ولكنه يأبى الا التمادى فى حلمه ؛ والركون الى طبعه ؛ وهكذا

يتحارب الطبع الذى مزجت به   مهج الانام وعقلهم فيفله

الا ترى الى حكايته ، حين زاد فى البيت الحرام ووسعه فابتاع من قوم وأبى آخرون ؛ فثار ثائره وهدم عليهم دارهم ووضع الأثمان فى بيت المال ؛ فصيحوا بعثمان

أتعرف ما ذا فعل ؟

أمر بهم أن يحبسوا وقال جملته المشهورة مخاطبا بها أولئك الثائرين وهى قوله – :

« أتدرون ما جرأكم على ؟

ما جرأ كم على إلاحلى : قد فعل هذا بكم عمر . فلم تصيحوا به ! »

وفى هذه الجملةمافيها من الألماللاذع والحسرةالقاتلة ؛ولكن هل اقتدى بعمر فى شدته بعد ذلك! ؟

كلا بل عاد الى طبعه فأخرجهم حين كلمه فيهم بعض الناس .

ولو أن عمر أو أبا بكر مكانه ، لما تهاونا فى القصاص ولأنزلا بهم ما يستحقون من نكال ، فجعلاهم عبرة للمعتبرين وأمثولة للثائرين !

* * *

توالت الثورات على « عثمان » ـ رضىالله عنه ـ وطمع فيه الناس لحلمه ، وتطاولوا عليه ، فلما لم يردعهم ، اجترأ عليه غيرهم .

وتضافرت أسباب أخرى ـ سنجملها فى الفصل التالى ـ وتعاون معها قدر لامفر منه ، فانتهت هذه وذاك باهلاكه ، وأدت إلى مصرعه المروع ! الذى نترك لزوجه « نائلة بنت الفرافصة » روايته بأسلوبها المؤثر ، إذ تقول ! من كتابها إلى معاوية :

كيف صرع

« وإنى أقص عليكم خبره ،لأنى كنت مشاهدة أمره كله ، حتى قضى الله عليه: ان أهل المدينة حصروه فى داره يحرسونه ليلهم ونهارهم ، قياماً على أبوابه بسلاحهم يمنعونه كل شيء قدروا عليه .

حتى منعوه الماء .يحضرون له الأذى ،ويقولون له الافك ، فمكث هو ومن معه خمسين ليلة »

وهكذا إلى أن تقول :«ثم إنه رمى بالتبل والحجارة ، فقتل ممن كان فى الدار ثلاثة نفر فأتوه يصرخون اليه ليأذن لهم فى القتال فنهاهم عنه وأمرهم أن يردوا عليهم بنبلهم ، فردوها اليهم فلم يزدهم ذلك على القتال إلا اجرأة ، وفى الأمر إلا أغراء . ثم أحرقوا باب الدار »

وهنا تقول :

«ودخل عليه القوم يتقدمهم « محمد بن أبى بكر » فأخذوا بلحيته ودعوه باللقب . فقال :

«أنا عبد الله وخليفته»

فضربوه على رأسه ثلاث ضربات،وطعنوه فى صدره ثلاثة طعنات وضربوه على مقدم الجبين فوق الأنف ضربة أسرعت في العظم

فسقطت عليه وقد أثخنوه ـ وبه حياة ـ وهم يريدون قطع رأسه ، ليذهبوا به فأتتى بنت شيبة بن ربيعة ، فألقت نفسها معى فوطئنا وطئاً شديداً . وعرينا من ثيابنا ـ وحرمة أمير المؤمنين أعظم ـ فقتلوه رحمة الله عليه ـ فى بيته وعلى فراشه وقد أرسلت اليكم بثوبه وعليه دمه .

وإنه والله لئن كان أثم من قتله ؟ لما سلم من خذله . »

بعد موته

قالوا :

«ونبذ عثمان ـ رضى الله عنه ـ ثلاثة أيام لا يدفن ، ثم إن بعض الناس كلم علياً فى دفنه وطلب اليه أن يأذن لأهله فى ذلك ففعل ،وأذن لهم «على»

قالوا .

«فلما سمع بذلك قصدوا له فى الطريق بالحجارة وخرج به ناس يسير به من أهله (١) وهم يريدون حائطا بالمدينة كانت اليهود تدفن فيه موتاهم يقال له «حش كوكب» فلما خرج به على الناس رجموا سريره ، وهموا بطرحه

---

(١) هم مروان بن الحكم وثلاثة من مواليه وابنته وزوجه .

قالوا: « فناحت ابنته ورفعت صوتها تندبه فانهالت الحجارة حتى كادت ترجمهم . »

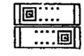
ويقول آخرون:

«إنه أخرج ولم يغسل، وأرادوا أن يصلوا عليه فى موضع فأبت الأنصار وأقبل عمير بن ضابئ - وعثمان موضوع على باب - فنزا عليه. فكسر ضلعا من أضلاعه وقال

« سجنت ضابئا حتى مات في السجن »

٭٭٭

ولولا أن تداركهم على بن أبى طالب ونهى الناس عن التمثيل به لما علم إلا الله إلى أى حد كانوا يتمادون فى التمثيل به، وقد انطلق به حتى دفن فى « حش كوكب » (١)



(١) فلما ظهر معاوية على الناس أمر بهدم ذلك الحائط حتى أفضى به إلى البقيع، فأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حول قبره، حتى اتصل ذلك بمقابر المسلمين.

الاسباب التى أدت الى مصرعه

(١) ضعفه

«ألا فقد والله عبتم علىّ بما أقررتم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه ، فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم - ولنت لكم وأوطأت لكم كتفي وكففت يدي ولسانى عنكم . فاجترأتم على »

«عثمان»

* * *

أجملنا فى الفصل السابق الاسباب التى أدت الى مصرعه ووعدنا بتفصيل أهمها فى هذا الفصل ؛ ونحن ننجز وعدنا الآن :

أول الاسباب التى انتهت بعثمان — رضى الله عنه — الى هذه الخاتمة المفجعة ضعفه الشديد ولين جانبه وفرط حيائه

لقد كان - رضى الله عنه - ذكيا فطنا عارفا بأخلاق الناس ولكن الارادة القوية والعزيمة الجريئة والبطش بالمذنبين ، وإغفال الرحمة ونسيان كل اعتبار فى سبيل تثبيت الأمن وتوطيد دعائم الملك والمضى فى انفاذ خطة جلية حازمة وتطبيق سياسية بعينها ، هذه هى

الخلال التي كانت تنقصه ،وهى وحدها الخلال الجديرة بكل حاكم يريد توطيد ملكه وتثبيت دعائمه

لم تغب عنه صفات عمر و مزاياه الباهرة ولا غفل عن تقليده في كثير من أموره ، ولكن نقصته شخصية عمر القاهرة الجبارة التي تهابها الناس وتلبي رغباتها وتنحني أمامها خاضعة. وتنفذ اشارتها راضخة .وتخشى ان تحيد عنها قيد انملة حتى لاتقع تحت طائلة عقابه أو يصيبها قصاصه الذى لا ينجو منه مخطيء ولا يفلت منه مسيء

وما لنا نحاول وصف عثمان وقد رسم لنا علي ـ رضى الله عنه ـ صورة ناطقة لم تدع بعدها غاية لواصفيه اذ يقول له:

«الناس ورائي وقد كلموني فيك . و والله ما أدري ما أقول لك وما أعرف شيئا تجهله ولا أدلك على أمر لاتعرفه

إنك لتعلم مانعلم ، ماسبقناك الى شيء فنخبرك عنه ، ولاخلونا بشيء فنبلغكه. وما خصصنا بأمر دونك ـ وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونلت صهره. وما ابن قحافه «أبو بكر» بأولى بعمل الحق منك ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك »

الى أن يقول.

«فالله الله في نفسك. فإنك والله ما تبصر من عمى و تعلم من جهل وإن الطريق لواضح بين»

فاذا اعتذر عثمان اليه بأنه يقتفي أثر عمر. أجابه «على» اجابته الموفقة اذ يقول «سأخبرك أن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فانما يطأ على صماخه، إن بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به اقصى الغاية . وانت لاتفعل .ضعفت ورفقت على أقربائك »

فاذا ذكر له عثمان أن معاوية كان ممن ولاه عمر مدة خلافته كلها وانه يقتدى كذلك بعمر فى توليته ، أبان له «على» الفرق بين العملين ، فقال :

« أنشدك الله ! هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر ، من « يرفأ » غلام عمر ؟ »

قال : « نعم »

قال على : « فان معاوية يقتطع الامور دونك وأنت تعلمها ؛ فيقول للناس : « هذا أمر عثمان ! » فيبلغك ولاتغير على معاوية !»

***

ولعل فى هذه الجمل أبلغ شرح يلمس منه القارىء مواطن الضعف فى عثمان رضى الله عنه ، التى أطمعت فيه سواه ، وأدت الى استهانة الناس بأمره !

أمثلة من جرأة الناس عليه

ولقد وصل اجتراء الناس عليه الى أبعد الغايات

فهذا رجل يشتمه وهو يخطب الناس على عصا النبى فى جمع

حاشد ، ويصيح به : «قم يانعثل(١) فانزل عن هذا المنبر !(٢) »، ثم يأخذ العصا فيكسرها على ركبته .

* * *

وذلك (٣) يمر به عثمان ، وهو جالس فى ندى من قومه ، فى فناء داره ، ومعه جامعة (٤) فيسلم عثمان فيرد القوم ، فيقول ذلك الرجل :

« لم تردون على رجل فعل كذا وكذا »

ثم يقبل على عثمان فيقول له : « والله لأطوحن هذه الجامعة فى عنقك أو لتتركن بطانتك هذه ! »

وتدور بينهما مناقشة (٥) يقرع فيها الخليفة أشد تقريع ، ويجترىء عليه أقبح اجتراء .

---

(١) النعثل الشيخ الاحمق ، أو الذكر من الضباع ، وهذا لقب رجل من أهل مصر ، كان طويل اللحية ، وكان عثمان اذا نيل منه وعيب يشبه به لطول لحيته . (٢) كان اسم هذا الرجل « جهجاه الغفارى ». وفى رواية أخرى أنه صاح به :

« ياعثمان ! ألا هذه شارف « ناقة مسنة هرمة » قدجئنا بها ، عليها عباءة وجامعة « سلسلة » فانزل فلندرعك العباءة ولنطرحك فى الجامعة ولنحملك على الشارف ، ثم نطرحك فى جبل الدخان ! »

(٣) هو « جبلة بن عمرو الساعدى » قالوا : « وهو أول من اجترأ عليه » (٤) سلسلة (٥) أحب الا تفوت القارئ قراءة هذه المناقشة فى تاريخ الطبرى «جزء ٥ ص ١٠٨ ».

وهذه مؤامرة مجرمة يكشف أمرها فيحاج أفرادها - بغير السيف - ثم يطلق سراحهم فيؤلبون عليه الثوار ويكونون أول من يرفع علم الثورة في وجهه(١)

وتلك جماعة تحصبه وهو يخطب ، فاذا خر صريعا حمل الى منزله، وهذا ابن العاص يفاخره ويتطاول عليه فلا يدع له مجالا للقول ؛ وتنتهى المناقشة بانكسار عثمان .

وهذا منشوره الذي كتب به فى الامصار ينبيء عن ضعفه وفرط لينه: اذ يقول «والله لأفرشنكم عرضي ؛ ولأبذلن لكم صبري ولأستصلحنكم بجهدي فلا تدعوا شيئا كرهتموه - ولا يعصى الله فيكم الا استعفيتم منه ؛ أنزل فيه عندما اصبتم حتى لا يكون على حجة ! »

ومتى لان الخليفة للناس الى هذا الحد ؛ صعب ارضاؤهم، وقف أطماعهم عند غاية لا يعدونها

بطانة عثمان ونصحاؤه

أما بطانة عثمان ونصحاؤه فكان أكثرهم مداهنا ؛ له مآرب يسعى الى تحقيقها - كلفه ذلك ما كلفه - وكان بعض نصحائه أحمق، مكروها من الناس، ولنلم مسرعين بأهم نصحائه والمشيرين عليه الذين لا يسع من يقرأ مصرع عثمان الا ان يطيف بذهنه ما قام به

---

(١) ارجع الى الطبرى « جزء ٥ ص ١٠٢ »

كل منهم من الدور الخطير الذى أدى الى مصرعه
ونبدأ باولهم :

مروان الاحمق

« فانك متى أطعت مروان قتلك ؛ ومروان ليس له
عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة ! »
« نائلة زوج عثمان »

أقل ما نصف به مروان الحماقة والاندفاع ، فهو وحده أكبر دليل على صدق المثل القائل « عدو عاقل خير من صديق جاهل » وعلى صحة قول ابن عبد القدوس :

ما يبلغ الاعداء من جاهل   ما يبلغ الجاهل من نفسه

حسب القارىء أن يعلم أن مروان هذا استطاع بحمقه وحمق أصحابه ان يوغر نفس « على » على عثمان ، قال ابن العباس وقد كان على له(١) صاحب صدق، حتى أوغر نفس على عليه، جعل مروان وسعيد وذووهما يحملونه على «على» فيحتمل و يقولون :
« لو شاء ما كلمك أحد »

وذلك على أن عليا كان يكلمه وينصحه ويغاظ عليه فى المنطق فى مروان و ذويه فيقولون لعثمان :

---

(١) لعثمان

« هكذا يستقبلك وأنت أمامه وسلفه وابن عمه وابن عمته ؟ فما ظنك بما غاب عنك منه؟»

قالوا « فلم يزالوا بعلى حتى أجمع الا يقوم دونه »

* * *

والحق ان عليا بذل النصح لعثمان وأبان له الخطة الرشيدة وأنقذه من مآزق محرجة ولكن :-

متى يبلغ البنيان يوما تمامه　　اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

ولقد قال على قولته الشهيرة التى تدل على تألمه الشديد من تردد عثمان:

« وما يريد عثمان أن ينصحه أحد، اتخذ بطانة أهل غش ليس منهم أحد إلا قد تسبب بطائفة من الأرض يأكل خراجها ويستذل أهلها . »

وهذه الجملة على شدتها فيها كثير من الصدق ، وإن كان فى آخرها شيء من المغالاة .

* * *

وماذا يصنع على بعد أن هدأ ثائرة الناس وخفف من غلوائهم إذ أعطاهم عثمان مهلة ثلاثة أيام ؛ فلما انتهت واجتمعوا على بابه ، مثل الجبال -كما يقول المؤرخون - قال عثمان لمروان « اخرج فكلمهم فانى أستحى أن أكلمهم »

قالوا :

فخرج مروان الى الباب ـ والناس يركب بعضهم بعضا ـ فقال :
«ماشأنكم ؟ قداجتمعتم كأنما قد جئتم لنهب ؟ « شاهت الوجوه ،
كل انسان آخذ باذن صاحبه !

جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ؟ اخرجوا عنا ،
أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم أمر لا يسركم ولا تحمدوا
غب رأيكم ، ارجعوا الى منازلكم فانا والله مانحن بمغلوبين على
مافى أيدينا ! »

* * *

فكانت هذه الخطبة ـ المملوءة حمقا ورعونة ـ شرارة شديدة الأثر فى
الهاب نار الثورة (١)

ولئن كان مروان قد أفلح فى اثارة الناس ضد عثمان بهذا الاندفاع
السخيف فقد أفلح أيضا في إغضاب «على» وتخليه عن الدفاع عن
عثمان بعد أن قال له قولته المأثورة :

« أما رضيت من مران ولا رضى منك إلا بتحرفك عن دينك
وعن عقلك ، مثل جمل الظعينة يقاد حيث يسار به ؛ والله ما مروان
بذى رأى فى دينه ولا في نفسه ! وايم الله انى لأراه سيوردك

---

(١) ارجع الى حكاية الكتاب الذى زوره على عثمان وكتبه الى
عامله فى مصر فى الجزء الخامس من الطبرى « ١١٥ » و « ١٢٠ »

ثم لا يصدرك؛ وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك ، أذهبت شرفك وغلبت على أمرك (١)

وقد صدق على فقد اورده مروان ثم لم يصدره ، وكان هذا آخر لقاء بين على وعثمان رضى الله عنهما !

---

(١) قالوا : فلما خرج على دخلت عليه نائلة ابنة الفرافصة امرأته فقالت : «اتكلم أو أسكت؟» فقال: «تكلمى» ، فقالت : «قد سمعت قول على لك وأنه ليس يعاودك، وقد أطعت مروان يقودك حيث شاء» ، قال «فما أصنع ؟» ، قالت «تتقى الله وحده لا شريك له، و تتبع سنة صاحبيك من قبلك فانك متى اطعت مروان قتلك ، ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة وانما تركك الناس لمكان مروان منك !

فأرسل الى على فاستصلحه فان له قرابة منك وهو لا يعصى »

قالوا : فأرسل عثمان الى على فأبى ان يأتيه وقال :

« قد أعلمته أننى لست بعائد »

***

قالوا : «فلما بلغ مروان قول نائلة فيه، جاء الى عثمان فجلس بين يديه فقال :ـــ

« أتكلم أو اسكت ؟ » قال « تكلم » فقال « إن بنت الفرافصة..... » فقال عثمان : ـــ لا تذكرنها بحرف فأسوىء لك وجهك ، فهى والله أنصح لى منك »

قالوا : «فكف مروان»

عمرو بن العاص (١)

« أنا أبو عبد الله اذا حككت قرحه نكأتها ، إن كنت لألقى الراعى فأحرضه على عثمان » « عمرو بن العاص »

***

و لعل هذه الجملة تمثل بوضوح ـ لا مزيد عليه ـ مقدار حقد ابن العاص

---

(١) لعل أبدع ما وصفه به ابن عباس هو قوله له حين قام عمرو بالموسم فأطرى معاوية وبنى امية وتناول بنى هاشم ثم ذكر مشاهده بصفين فقال ابن عباس :

« ياعمرو : انك بعت دينك من معاوية فأعطيته ما فى يدك ومناك مافى يد غيره ، فكان الذى أخذ منك فوق الذى أعطاك ، وكان الذى أخذت منه دون ما أعطيته ــ وكل راض بما أخذ وأعطى ــ فلما صارت مصر فى يدك تتبعك بالعزل والتنقص حتى لو أن نفسك فيها لألقيتها اليه

و ذكرت مشاهدك بصفين ، فما ثقلت علينا يومئذ وطاتك ، ولا نكأتنا حربك ، و ان كنت فيها لطويل اللسان قصير السنان ، آخر الحرب إذا أقبلت وأولها إذا أدبرت

لك يدان ، يد لا تبسطها الى خير ، و يد لا تقبضها عن شر و وجهان وجه مؤنس و وجه موحش .

و لعمرى إن من باع دينه بدنيا غيره لحرى أن يطول حزنه على ما باع واشترى ، لك بيان وفيك خطل ، ولك رأى و فيك نكد ، ولك قدر وفيك حسد ، فأصغر عيب فيك أعظم عيب فى غيرك »

عليه.وكثيراًماتظاهر له بمظهر الناصح سراً ثم جبهه علانية. ألا ترى اليه يستشيره عثمان ـ فى جماعة من صحبه ـ فيقول له عمرو » : ـ

« أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون » فاعتزم أن تعتدل فان أبيت فاعتزم أن تعتزل « فان أبيت فاعتزم عزما وامض قدما فيه .»

فاذا تفرق القوم قال عمرو : ـ

« والله يا أمير المؤمنين لأنت أعز على من ذلك ، ولكن قد علمت أن سيبلغ الناس قول رجل منا ، فأردت أن يبلغهم قولى فيثقوا بى فأقود اليك خيراً أو أدفع عنك شرا »

أيخفى عليك ما فى هذا الاعتذار من المكر والدهاء ؟

* * *

وانظر الى كيده ـ وهو يصيح بعثمان على ملأ من الصاخبين المتمردين الذين وقف يخطبهم عثمان :

« ياأمير المؤمنين »

« إنك قد ركبت نهابير (١) وركبناها معك ، فتب نتب » .

ولا تنس مناقشته الجريئة لعثمان التى ذكرها الطبري فى الجزء الخامس (ص ١٠٨) وأحب أن ترجع اليها .

ولقد حدثنا المؤرخون أنه خرج حتى نزل منزله بفلسطين فكان يقول : ـ

---

(١) مهالك

« والله ان كنت لألقى الراعى فأحرضه عليه(١)»

معاوية(٢)

« فلما جاء معاوية الكتاب تربص به وكره اظهار مخالفته أصحاب رسول الله » المؤرخون

ولعلك تعجب من ذكر معاوية فى هذا المقام، ولكن مم العجب، وأقل ما يقال في هذا الداهية إنه كان يستطيع انقاذ عثمان من القتل وإنه أضاع هذه الفرصة عمدا وفاق خطة مرسومة.

لقد استنجد به عثمان - لينقذه من مخالب الموت ولكن شبح الخلافة لاح لمعاوية فتباطأ عن نصرة عثمان وأنساه عرض الدنيا الزائل وزخرفها الكاذب واجب الوفاء والنجدة .

---

(١) وفى رواية أخرى أنه قال :

« إن كنت لأحرض عليه حتى أنى لأحرض عليه الراعى فى غنمه فى رأس الجبل »

(٢) لعل أبدع وصف لمعاوية هو قول عمرو بن العاص :

« ما رأيت معاوية قط متكئا على يساره، واضعا إحدى رجليه على الأخرى، كاسراً إحدى عينيه، يقول للذى يكلمه : « ياهناه ! » الا رحمت الذى يكلمه »

قالوا :

لما رأى عثمان ما قد نزل به وما قد انبعث عليه من الناس كتب إلى معاوية بن أبى سفيان وهو بالشام - :

« بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد

فان أهل المدينة قد كفروا ، وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة فابعث إلى من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول »

قالوا « فلما جاء معاوية الكتاب تربص به وكره مخالفة أصحاب الرسول . وقد علم اجتماعهم »

وليس يخفي على أحد مغزى هذا الكلام وسر امتناعه عن نصرة أحق الناس بنصرته (١)

---

(١) وكان معاوية قد قال لعثمان غداة ودعه وخرج :

« يا أمير المؤمنين انطلق معى إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به فان أهل الشام على الأمر لم يزالوا »

فقال له عثمان : « أنا لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء وإن كان فيه قطع خيط عنقي »

قال : « فأبعث اليك جنداً منهم نعيم بين ظهرانى أهل المدينة لنائبة إن نامت المدينة أو إياك »

فلما حانت ساعة الجد ظهر أن كل ذلك وعود خلا به وكلمات معسولة لا قيمة لها

ومن تهكمات القدر وعجائب الأيام ومضحكات العبر أن يحرض ابن العاص على قتل عثمان ويتخلى معاوية عن نجدته ، ثم يطالبان بدمه علي بن أبي طالب الذي أخلص له النصيحة وأبان له طريق النجاة واضحاً فتنكبه .



مصرع علي (١)

«هم ضربوا حيدرا (٢) ساجدا
وحسبك من عمر اذ طعن»
« أبو العلا »

تمهيد

من ذكر عليا فقد ذكر أسمى الصفات الانسانية
النزاهة ، الاستقامة ، الشجاعة، الصراحة، النبل، القوة ، الفطنة

---

(١) رابع الخلفاء الراشدين ، مكث فى الخلافة أربع سنين وتسعة أشهر ، وقتل سنة ٤٠ هـ ، كنيته ابو الحسن واسم أبيه ابو طالب

ولى (على) الخلافة بعد مقتل عثمان بعد ان بايعه أهل الحجاز وكاد يستتب له الامر لولا الفتنة التى أضرم نارها معاوية متخذاً من مقتل عثمان ذريعة لتحقيق أمله فى الخلافة والوقوف فى وجه على

صفته

قالوا « هو رجل آدم ، شديد الادمة ، ثقيل العينين عظيمهما ، أصلع » ذو بطن وهو الى القصر أقرب

(٢) يعنى على بن ابى طالب ، وقبل هذا البيت يقول أبو العلاء :

لقد فقد الخير بين الأنام ... والشر فى كل وجه يعن
أعن بجميل اذا ما حضر ... ت، وعد بالسكون اذا لم تعن
وإن جاءك الموت فافرح به ... لتخلص من عالم قد لعن

وان أوجز ما يقال فى على انه اقتبس أكبر قسط من أخلاق النبوة ؛ وعرف كيف يستفيد من اخلاق الرسول

ربما قال قائل :ـ

«ولكن علياً كان شديد البطش ؛ وقد ألف الناس من ليونة عثمان ما جعلهم ينفرون من شدة على »

ذلك حق ، وليت عليا ـ رضى الله عنه ـ تريث قليلا فلم يعزل بعض الولاة ويهم بعزل الباقين قبل أن يستتب له الأمر ، وتستقر له الخلافة ، ولكنها الصراحة تأبى عليه ان يعلن خلاف ما يضمر ، والغيرة على الحق تدفعه الى الذود عنه ، جالبا عليه من عداوة الناس ما جلب !

كان عثمان ليناً فأطمع لينه الناس فيه ، وكان « على » شديدا فانتفع خصومه بهذه الشدة ، فاستمالوا الناس اليهم بما أوتوه من دهاء وحذق ؛ وحسبك أن تعلم أى قوتين هائلتين من قوى العالم النادرة كانتا تناوئانه لتلتمس له ألف عذر !

لقد تعاونت سياسة معاوية ، ودهاء ابن العاص ، على استغلال صراحة على واستقامته ، فلم يتركا وسيلة من وسائل المكر والحيلة الا سلكاها ، ولا دعوى من دعاوى الكيد الا أذاعاها ، حتى أوهما أنصارهما أنه قاتل عثمان وأنه مستميت فى طلب الخلافه ، بل نحلاه ماهو أكثر من ذلك وأشنع ، وألصقا به من الصفات

مايعلمان علم اليقين أنه أبعد الناس عنه ، وأشدهم براءة منه

حسب القارىء أن يذكر المثال التالى ، ليعرف مدى دعايتهما ومقدار ما تحدثه مثل هذه المفتريات فى نفوس الناس وفى الهاب قلوبهم حماسا وبغضا لعلى !

قال بعض من شهد تلك المعارك الهائلة :

«فانهم لكذلك إذ خرج عليهم فتى شاب وهو يقول :-

«انا ابن أرباب الملوك غسان والدائن اليوم مدين عثمان

انى أتانى خبر فأشجان أن عليا قتل ابن عفان»

ثم يشد ، فلا ينثنى حتى يضرب بسيفه ، ثم يشتم ويلعن . ويكثر الكلام ، فقال له « هاشم بن عتبة » :

« ياعبد الله إن هذا الكلام بعده الخصام ، وإن هذا القتال بعده الحساب ، فاتق الله فانك راجع إلى الله فسائلك عن هذا الموقف ، وما أردت به . »

قال : « فانى أقاتلكم لأن صاحبكم (١) لا يصلى ، كما ذكر لى وأنتم لا تصلون أيضاً ، وأقاتلكم لأن صاحبكم قتل خليفتنا وأنتم أردتموه على قتله (٢) ؛ »

---

(١) يعنى عليا

(٢) قالوا : فأجابه هاشم :

« وما أنت وابن عفان ، إنما قتله أصحاب محمد وأبناء أصحابه

فانظر إلى أى مدى طوح بهما الكيد لعلى بن أبى طالب والرغبة فى تأليب الناس عليه !

على أن علياً ظل منتصراً رغم كل هذا الدسائس، وكاد يتم له الأمر لولا حيلة ابن العاص التى لجأ اليها أخيرا، حين رفع المصاحف ودعا علياً إلى التحكيم، فافترق أصحابه شيعاً، ودب فى صفوفهم دبيب الشقاق والفتنة، وانتهى الأمر بمصرعه المروع.

حين أحدث الأحـــداث، وخالف حكم الكتاب وهم أهل الدين وأولى بالنظر فى أمور الناس منك ومن أصحابك، وما أظن أمر هذه الأمة وأمر هذا الدين أهمل طرفة عين ! »

فقال له : «أجل والله لا أكذب فان الكذب يضر لا ينفع»

قال : فان أهل هذا الأمر أعلم به، فخله وأهل العلم به !

قال : «ما أظنك والله إلا نصحت لى» !

قال : « وأما قولك : إن صاحبنا لا يصلى، فهو أول من صلى وأفقه خلق الله فى دين الله، وأولى بالرسول !

وأما كل من ترى معى فكلهم قارىء لكتاب الله لا ينام الليل تهجداً، فلا يغوينك عن دينك هؤلاء الأشقياء المغررون»

فقال الفتى :

«إنى أظنك امرأ صالحا، فخبرنى هل تجد لى من توبة؟»

فقال : نعم ياعبد الله ! تب إلى الله يتب عليك، فانه يقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات ويحب التوابين ويحب المتطهرين ! »

قال: «فكر والله الفتى راجعاً»

ليلة المصرع وساعة الهول

قال محمد بن الحنفية :

كنت والله ، وإنى لأصلى تلك الليلة التى ضرب فيها على ، فى المسجد الأعظم ـ فى رجال كثير من أهل المصر ـ يصلون قريبا من السدة ؛ ماهم إلا قيام وركوع وسجود ؛ وما يسأمون ، من أول الليل إلى آخره

إذ خرج « على » لصلاة الغداة ، فجعل ينادى :

« أيها الناس ! الصلاة الصلاة »

فما أدرى أخرج من السدة فتكلم أم لا !

فقال له رجل من أهل الشأم :

خدعك العراقى ! خدعك العراقى !

قال : « لا ، ولكن نصح لى ! »

***

ألا ترى إلى هذا الصنف من الناس يستميله رأى فيأخذ به ، ولا يحجم عن بذل آخر قطرة من دمه فى سبيل نصرته وتأييده ، فاذا سمع رأيا يناقضه عدل عن رأيه الأول

بربك كم يكون تأثير مثل معاوية وابن العاص على مثل هذه الفئة من الناس ، وأحب أن أنبه القارىء إلى ملاحظة على قول هشام هذا ، فهو يؤيد فى كلمته — أو هو على الأقل — لا يحاول نفى تهمة قتل عثمان عن على ، تلك التهمة التى يبنى عليها خصومهم كل دعاواهم الطويلة.

فنظرت الى بريق و سمعت : « الحكم لله يا على ، لا لك و لا لأصحابك » فرأيت سيفاً ، ثم رأيت ثانياً ، ثم سمعت عليا يقول : « لا يفوتنكم الرجل ! »

و شد الناس عليه من كل جانب

قال : « فلم أبرح حتي أخذ «ابن ملجم» و أدخل على «على»، فدخلت -فيمن دخل من الناس - فسمعت عليا يقول : « النفس بالنفس » إن أنا مت فاقتلوه كما قتلنى ، و إن بقيت رأيت فيه رأيى ! »

وصاياه قبل موته

وقبل أن تفيض روحه الطاهرة الى بارئها ، نقية بارة؛ رسم لبنيه صورة يحتذونها ، أوجز ما نصفها به أنها تمثل منزعه و تصف ما امتازت به نفسه من خلال عالية و أخلاق سامية فريدة ؛ هى جماع الفضائل :

قالوا : إن أحد الناس قد دخل عليه ؛ فسأله :

« ياأمير المؤمنين! إن فقدناك -ولا نفقدك- فنبايع الحسن »

فقال : « ما آمركم و لا أنهاكم ! أنتم أبصر ! »

فرد عليه مثلها .

فدعا حسنا و حسينا ، فقال :

«أوصيكما بتقوى الله ، و ألا تبتغيا الدنيا - و إن بغتكما - و لا

تبكيا على شيء زوى عنكما؛ وقولا الحق؛ وارحما اليتيم، وأغيثا الملهوف، واصنعا للآخرة، وكونا للظالم خصما، وللمظلوم ناصرا؛ واعملا بما فى الكتاب، ولا تأخذكما فى الله لومة لائم »
قالوا: « ثم نظر الى محمد بن الحنفية، فقال: « هل حفظت ما أوصيت به أخويك؟ » قال: « نعم! »

قال: « فانى أوصيك بمثله، وأوصيك بتوقير أخويك العظيم حقهما عليك فاتبع أمرهما، ولا تقطع أمراً دونهما! »

ثم قال:

« أوصيكما به، فانه شقيقكما وابن أبيكما، وقد علمتما أن أباكما كان يحبه » وهكذا الى آخر هذه الوصية الثمينة

وصيته الاخيرة

قالوا: « فلما حضرته الوفاة أوصى فكانت وصيته:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أوصى به « على بن أبى طالب »، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون. ثم إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له؛ وبذلك أمرت، وأنا من المسلمين.

ثم أوصيك ياحسن ، وجميع ولدى وأهلى ، بتقوى الله ربكم ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، فانى سمعت أبا القاسم — صلى الله عليه وسلم — يقول :

« إن صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام ! » :

انظروا إلى ذوي أرحامكم فصلوهم ، يهون الله عليكم الحساب ، الله الله في الأيتام ، فلا تعنوا أفواههم ، ولا يضيعنّ بحضرتكم والله الله فى جيرانكم ، فانهم وصية نبيكم ، صلى الله عليه وسلم ما زال يوصى به حتى ظننا أنه سيورثه ، والله الله في القرآن فلا يسبقنكم الى العمل به غيركم » وهكذا الى أن يقول :

« والله الله فى الفقراء والمساكين ، فأشركوهم فى معايشكم ، والله الله فيما ملكت أيمانكم » ثم يقول : » ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فيولى الأمر شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم ، وعليكم بالتواصل والتبادل وإياكم والتدابر والتقاطع والتفرق ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ، واتقوا الله ؛ ان الله شديد العقاب ! حفظكم الله من أهل بيت وحفظ فيكم نبيكم ، أستودعكم الله ، وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله ! »

الجملة الاخيرة

قالوا : « ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله » حتى قبض ، وهكذا انتهت حياة هذا البطل ؛ وختم تاريخه الحافل بجلائل الأعمال !

أهم الاسباب التي أدت الى مصرعه

« يا معاوية ! انه والله لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب ، إنك لم تجد شيئاً تستغوى به الناس و تستميل به أهواءهم ؛ و تستخلص به طاعتهم إلا قولك : « قتل امامكم مظلوما ، فنحن نطلب بدمه » فاستجاب له سفهاء طغام ، وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب ! ورب متمني أمر وطالبه ، الله – عز وجل – يحول دونه بقدرته ، وربما أوتى المتمني أمنيته ، وفوق أمنيته ! ووالله مالك فى واحدة منهما خير !

لئن أخطأت ما ترجو إنك لشر العرب حالا فى ذلك ، ولئن أصبت ما تمنى ، لا تصبه حتى تستحق من ربك صلىّ النار فاتق الله يا معاوية ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله ! »

« ابن ربعي التميمي »

١ دم عثمان

« أنطل (١) دم عثمان ؟ لا والله لا أفعل ذلك أبدا ؟ »

بهذه الجملة وأشباهها يرد معاوية على كل من ينشده العدل ،

---

(١) أنذهب دمه هدراً

ويطلب اليه، أن يعدل عن فتنته التى أثارها ، ويتقى الله فى تفرق جماعة هذه الأمة وسفك دمائها بينها »

وبهذا السلاح الماضى الأخاذ بالأبصار يستميل الناس اليه ويؤلب جموعهم ضد « على » وأشياع « على » وأنصاره ، كأنما لاهم له من الدنيا إلا الثأر لعثمان وحده ، ولاغرض له فى خلافة أو ملك !

وبهذا المعول القوى يهدم كل دعوة للتوفيق ، ويدك كل صرح للوئام من أساسه ، فتذهب جهود المخلصين والراغبين فى حقن دماء المسلمين سدي ، ويسد الطريق سدا على كل خطيب بليغ ، ويرد به على كل حجة ، بالغةمابلغت من الاصالة والصدق !

فاذا قال له وفد « على » :ـ

« يامعاوية ! إن الدنيا عنك زائلة وانك راجع إلى الآخرة وإن الله ـ عز وجل ـ محاسبك بعملك وجازيك بماقدمت يداك وانى أنشدك الله عز وجل أن تفرق جماعة هذه الأمة ، وأن تسفك دماءهابينها » ـــ :

أسرع معاوية فقطع عليه الكلام ، وقال له :

« هل أوصيت بذلك صاحبك ؟ »

فاذا أجابه : « إن صاحبى ليس مثلك ، إن صاحبى أحق البرية كلها بهذا الأمر ، فى الفضل والدين والسابقة فى الاسلام والقرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم ! » قال له معاوية: «فيقول ماذا ؟»

فاذا أجابه بقوله : « يأمرك بتقوى الله عز وجل ، واجابة ابن عمك الى ما يدعوك اليه من الحق ، فانه أسلم لك فى دنياك وخير لك فى عاقبة أمرك »

ارتبك معاوية ؛ و لم يبق أمامه ما يبرر به احداث هذه الفتنة الشعواء التى أوقد نارها ، وأشعل ضرامها فى سبيل الخلافة ، وضحى من أجلها بالألوف من أرواح المسلمين البريئة ، وثمة يقذف بهذا الحجر فى وجه ناصحه فيقول له :

« و نطل دم عثمان — رضى الله عنه؟ لا والله لا أفعل ذلك أبداً »

وبذلك يبرر سلوكه و تمرده على الخليفة « على » ويتظاهر بالغيرة على دم عثمان أن يطل ، ويذهب دون أن يثأر له، وقد كان - بالأمس - يتباطأ عن حقنه ، وصون حياة صاحبه وهو يستنجده فيصم أذنيه عن سماع دعوته ، ولا يخف لنجدته ، كما يخف الآن للانتقام ممن يزعمهم قاتليه !

فاذا توادع القوم - يوم صفين - واختلفت الرسل فيما بين على ومعاوية ؛ كان رده على الوفود شبيهاً برده على سابقيهم من قبل(١)

فباسم المطالبة بدم عثمان أهدر دماء المسلمين ؛ وباسم المطالبة بدم عثمان اندلعت نيران الفتنة فالتهمت جمهرة من أبطال المسلمين وقادة الرأى فيهم ، وباسم المطالبة بدم عثمان ستر معاوية وابن العاص وأشياعهما أطماعهم وأغراضهم السياسية وألبوا الجموع الزاخرة على « على بن ابى طالب ! »

---

(١) ارجع الى (ج ٦ ص ٣) من تاريخ الطبرى

(٢) الدسائس

لم يكتف معاوية و أشياعه بهذا السلاح وحده فى محاربة «على».
بل عززوه بأسلحة أخرى أهمها سلاح الدس والايقاع بين أنصار على،
ولم تكن الحرب بينهما – على الحقيقة – الا سلسلة متصلة الحلقات
من دسائس معاوية و ابن العاص ، وحسب القارىء أن يعلم أن
معاوية لم يترك وسيلة من وسائل الايقاع الدس للوصول الى
إربته و النكاية بخصمه إلا سلكها بلا تردد

الا ترى اليه يحاول استمالة « قيس بن سعد » الذى ولاه «على»
على مصر فاذا أخفق فى سعيه و يئس من استمالته اليه ، لجأ الى
الدس ، فأشاع فى الشام أن والى مصر ، على اتفاق معه ، ثم عمل
دائباً على نشر هذه الاشاعة وتقويتها حتى يحسبها الناس حقاً
لامراء فيه ؛ فاذا بلغ علياً ذلك عزله وولى محمد بن بكر مكانه !

بل هو يحاول الايقاع جهرة بين اثنين من ولد على حين قطع
أحدهما على الآخر قوله ليرد على معاوية ، فأراد معاوية أن ينتهز
هذه الفرصة للايقاع بينهما فأخفق ، ولا تنس حكاية المصاحف
التى أوقعت الفرقة في صفوف أنصار «على» وفرقتهم شيعاً ، وحكاية
ابن العاص وأبى موسى الاشعرى ، التى زادت فى الانقسام والتفرقه ،
فليست كل هذه إلا آثاراً ناطقة شاهدة بما للقوم من دهاء ومكر
وقدرة على استغلال الظروف والايقاع بين الناس !

(٣) شدة على

أما شدة على فقد أشرنا اليها فى كلمتنا السابقة ولا نرانا فى حاجة إلى الاسهاب فيها ، فقد عرفت أن علياً كان لا يتسامح في الحق ولا يقبل فيه لومة لائم ، وكان يحاسب على القطمير ، وقد بدأ عمله بعزل كثير من الولاة قبل أن يستتب له الامر، ونحب أن نضيف الى ما أسلفناه مثلا واحداً نجتزىء به عن أمثلة كثيرة

قال ابن أبى رافع - وكان خازنا لعلى ؛ على بيت المال :: « دخل «على» يوما ، وقد زينت ابنته، فرأى عليها لؤلؤة ،من بيت المال قد كان عرفها ،فقال : «من أين لها هذه ؟ لله على أن أقطع يدها !»

قال ابن أبى رافع : « فلما رأيت جده فى ذلك ، قلت :: « أنا والله يا أمير المؤمنين زينت بها ابنة أخى ،ومن أين كانت تقدر عليها ، لو لم أعطها » فسكت

فاذا أضفنا -الى ذلك- اعتماده على نفسه وعدم استشارته سواه من أولى الرأى ، مما أحقد عليه أمثال طلحة والزبير فنقضا بيعته وانضما الى السيدة « عائشة » التى شبت أول نيران الفتنة فى موقعة « الجمل »، وأضفنا الى ذلك حنق معاوية فى اكتساب قلوب الناس واجتذابهم اليه، وبغض السيدة عائشة -رضى الله عنها- لعلى بعدما أبداه من الرأى فى حادثة الافك من قبل ، وذكرنا ما أبداه معاوية من المهارة السياسية في استرداد مصر وأخذ الحرمين واليمن أثناء

انشغال على بالخوارج ، نقول : إذا ذكرنا هذه الأسباب ، سهل علينا أن نفهم سر هذه الفتنة الشعواء التي انتهت بقتل على ! وقد كانت - لولا عجائب القدر - منتهية بقتل معاوية وابن العاص أيضا ، ولكنه القدر المحتوم والأجل الذى لا مفر منه قد انتهى ولا راد لقضاء الله، قالوا:

اجتمع « ابن ملجم » و « والبرك بن عبد الله » و « عمرو بن بكر التميمى » فتذاكروا أمر الناس، وعابوا على ولاتهم ، ثم ذكروا أهل النهر ، فترحموا عليهم، وقالوا : « ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئا ، اخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم ، والذين كانوا لا يخافون فى الله لومة لائم ، فلو شرينا أنفسنا ، فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم اخواننا »

فقال ابن ملجم : « أنا أكفيكم على بن أبى طالب » وكان من أهل مصر ، وقال البرك بن عبد الله : « أنا أكفيكم معاوية بن أبى سفيان » ، وقال عمرو بن بكر : « أنا أكفيكم عمرو بن العاص »

فتعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذى توجه اليه حتى يقتله أو يموت دونه ؛ فأخذوا أسيافهم فسموها ، واتعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان أن يثب كل واحد منهم على صاحبه الذي توجه عليه ، وأقبل كل رجل منهم الى المصر الذي فيه صاحبه الذى يطلب »

فأنت ترى أن قتل هؤلاء الزعماء الثلاثة « على ومعاوية وابن

العاص » كان أمراً مقرراً محتوماً ، وأن القدر وحده هو الذى حال دون هذه الخاتمة ، وأنقذت تصاريفه العجيبة « معاوية وابن العاص » ولم يمت من بين هؤلاء إلا « ابن أبى طالب » رضى الله عنه [١]

فقد رووا أن « البرك بن عبد الله » قعد لمعاوية فى الليلة التي ضرب فيها على ، فلما خرج معاوية ليصلى (الغداة) شد عليه بسيفه فوقع فى اليته ، فأخذ ، فقال : « إن عندي خبراً أسرك به ، فان أخبرتك فنافعى ذلك عندك ؟ » قال « نعم » قال « إن أخا لى قتل علياً فى مثل هذه الليلة » قال : « فلعله لم يقدر على ذلك » قال « بلى إن علياً يخرج ليس معه من يحرسه » فامر به معاوية فقتل ؛ وبعث معاوية الى طبيبه ؛ فلما نظر اليه قال « اختر أحدى خصلتين أما أن أحمى حديدة فأضعها موضع السيف وإما أن أسقيك شربة تقطع منك الولد وتبرأ منها فان ضربتك مسمومة » فقال معاوية : « أما النار فلا صبر لى عليها ، واما انقطاع الولد فان فى « يزيد وعبدالله » ما تقر به عينى » فسقاه تلك الشربة فبرأ ولم يولد له بعدها [٢] »

وكان ذلك كل مالقيه معاوية من الجزاء على هذه الفتنة التى سعر نارها وأذكى أوارها

---

(١) قالوا : « ولما انتهى الى عائشة قتل على ـ رضى الله عنه ـ قالت :
فالقت عصاها ، واستقر بها النوى   كما قر عينا بالاياب المسافر
(٢) قالوا : « وأمر معاوية عندئذ بالمقصورات وحرس الليل وقيام الشرط على رأسه اذا سجد ! »

أما «عمرو بن العاص» فقد جلس له «عمرو بن بكر» تلك الليلة ولكن «ابن العاص» لم يخرج تلك الليلة وكان اشتكى بطنه، فأمر «خارجة ابن حذافة» ـ وكان صاحب شرطته ـ فخرج ليصلي فقتله «عمرو بن بكر» فاخذه الناس فانطلقوا به الى عمرو يسلمون عليه بالامرة، فقال: «من هذا؟» قالوا: «عمرو» قال: «فمن قتلت!» قالوا: «خارجة بن حذافة» قال: «أما والله يافاسق ماظننته غيرك!»

فقال عمرو: «اردتني وأراد الله خارجة».

فقدمه عمرو فقتله؟

فليتها إذ فدت عمرا بخارجة فدت عليا بما شاءت من البشر

ولكن:

تقفون والفلك المسخر دائب وتقدرون، فتضحك الأقدار



مصرع الوليد الثاني (١)

و يا دهر لحاك الله ما هنأت فرحانك

« أبو العلاء »

« ويقال إنه لما أحيط به ، دخل القصر وأغلق بابه ، وقال

دعوا الى « هندا » و« الرباب » و« فرتنى»

ومسمعة ، حسبي بذلك مالا

خذوا ملككم ، لا ثبت الله ملككم

فليس يساوى - بعد ذاك - عقالا

وخلوا سبيلى (قبل عير وما جرى ٢)

ولا تحسدونى أن أموت هزالا

فألب عن تلك المنزلة أى ألب ، وروُى رأسه فى فم كلب

كذلك نقل بعض الرواة ، والله القائم بجزاء الغواة »

« رسالة الغفران »

---

(١) أو الوليد الفاسق كما يلقبونه

(٢) مثل يضرب للسرعة ، ومعنى الأبيات « اتركوا الى هذه الاشياء ثم خذوا الملك منى بعد ذلك ، فانى أتركه لكم فى الحال مكتفياً بها ، ولا يهمكم من أمرى شىء بعد »

— ١ —

إلمامة تاريخية

ما ذكرت مصرع الوليد، الا ذكرت معه مصرع الدولة الأموية الوشيك ، وذكرت كيف تنجز الثورات الداخلية ما عجزت عنه الثورات الخارجية، وكيف تقضي الحروب الأهلية على دولة قوية لها ماض مجيد في الفتوحات والانتصارات الباهرة بعد أن تمكنت من البطش بأقوى الثائرين وأشدهم مراساً وأصلبهم عوداً

ولكن المطامع والأحقاد التي شبت في جوانح أفراد هذه الاسرة - في عهد الوليد وبعده - عرفت كيف تنهك هذه الدولة وتقودها الى الدمار ، ثم ، تسلمها لقمة سائغة - بعد قليل من الزمن - الى العباسيين المتطلعين الى الملك .

ولقد تنبأ العباس « ابن عم الوليد » بهذه العاقبة ، ودل على أصالة رأيه وبعد نظره ، اذ عنف أخاه يزيد أشد تعنيف ، وحذره من اثارة الفتن حين رآه متطلعاً الى الخلافة راغباً في الانتقاض على الوليد ، وأغلظ له القول ، ثم تمثل قائلا :

إني أعيذكم بالله من فتن	مثل الجبال ، تسامى ، ثم تندفع
إن البرية قد ملت سياستكم	فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم	ان الذئاب اذا ما ألحمت رتعوا

لا تبقرن بأيديكم بطونكم فثم لا حسرة تغنى ولا جزع!

ولقد صحت نبوءته ، وتحقق صدق ما تمثل به من الشعر ، ووقع كل ما قال .

* *

لقد أساء يزيد بن عبد الملك الى ابنه الوليد - عن غير ما قصد أيما اساءة ، اذ أسند الأمر - من بعده - الى أخيه هشام ، ثم أدرك خطأه فيما بعد وندم أشد الندم ولكن بعد فوات الفرصة .

فقد استخلف أخاه هشاماً حين بلغ « الوليد » احدى عشرة سنة ، فلما بلغ خمس عشرة ، ندم على تسرعه

قالوا :

وكان اذا نظر الى ابنه الوليد قال :

«الله بيني وبين من جعل هشاماً بيني وبينك »

وفي هذه الجملة كل معانى الحسرة والندم !

وبعد أن مات « يزيد بن عبد الملك » بدأ ، هشام بتعظيم الوليد ، ثم داخله الطمع فأراد استخلاف ابنه بعده ، فلما رأى الوليد حجر عثرة فى طريق مطامعه ، أراده على ذلك ، فأبى ، فطلب اليه أن يستخلف ابنه بعد خلافته ، فأبى الوليد ذلك أيضاً

هنا حقد هشام على ابن أخيه ، وتنمر للوليد ، وأخذ يملأ الدنيا عليه تشنيعاً ثم أقصاه عنه ، واضطهد أصدقاءه والمقربين اليه ،

ونكل ببعضهم تنكيلا (١) ، ومات هشام وفى فؤاده حسرة من الوليد (٢)

---

(١) وفى ذلك يقول الوليد كلاما كثيراً ؛ نختار منه قوله :

« من يثق بالناس ، ومن يصطنع المعروف ؟ هذا الأحول المشئوم (هشام) قدمه أبى على أهل بيته ، فصيره ولى عهده ، ثم يصنع بى ماترون ؟ لا يعلم أن لى فى أحد هوى الاعبث به ! »

وقوله من كتاب بعث به الى هشام :

« رأيتك تبنى جاهداً فى قطيعتى فلو كنت ذا إرب لهدمت ما تبنى
تثير على الباقين مجنى ضغينة فويل لهم ـ ان مت ـ من شر ما تجنى
كأنى بهم ، « والليت » أفضل قولهم: « ألا ليتنا » والليت اذ ذاك لاتغنى
كفرت يداً من منعم لو شكرتها جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمن

(٢) وليس أدل على ذلك من قوله لبعض خواصه ذات يوم :

« أترى الناس يرضون بالوليد ، إن حدث بى حدث ؟ »

قال : « بل يطيل الله عمرك يا أمير المؤمنين »

قال : « ويحك! لا بد من الموت أفترى الناس يرضون بالوليد ؟ »

قال : « يا أمير المؤمنين ! إن له فى اعناق الناس بيعة »

فقال هشام : ،

لئن رضى الناس بالوليد ، ما أظن الحديث الذى رواه الناس :

« إن من قام بالخلافة ثلاثة أيام لم يدخل النار» الا كاذبا

ولم ينس حقده على الوليد حتى فى ساعته الأخيرة فى وقت احتضاره =

فلما آل الأمر للوليد ؛ كان أول همه الانتقام والتمثيل بأعدائه حتى كال لهشام المد صاعا (١) وانتقم لنفسه من أبناء أخيه وأهله وأنصاره ؛ انتقاماً أحفظ عليه أسرته، وما زال يمعن في التنكيل بأعدائه ؛ وهم يمعنون فى التشهير به و نشر الدعاية ضده وعلى رأسهم « يزيد بن الوليد » الذى اتخذ ـ من ظهوره بالنسك أمام الناس ومحبتهم اياه ـ وسيلة لتبغيضهم فى الوليد ؛ فما ترك فرصة للتشنيع عليه الا انتهزها ، ولا عرض ذكره الا لقبه بالفاسق

قالوا :

وكان يظهر النسك؛ و يتواضع و يقول: «ما يسعنا الرضا بالوليد!» حتى أدرك إربته ، وألب الناس ضده ، رافعاً أمامهم علم الثورة التى انتهت بالفتك بالوليد ، وانتقال الامر الى يزيد .

وهكذا تضافرت الظروف على إهلاك الوليد ونال أعداؤه

= حين صار فى حال لا ترجى الحياة لمثله ، فقد أفاق ـــ كما يقولون ـــ إفاقة، فطلب شيئا فمنعوه، فقال :

« أرانا كنا خزانا للوليد » ومات

(١) وفى ذلك يقول :

ليت هشاماً عاش حتى يرى — مكياله الأوفر قد أترعا
كلناه بالصاع الذى كاله — فما ظلمناه به أصبعا
وما أتينا ذاك عن بدعة — أحله الفرقان لى أجمعا

منه ما يريدون ، وقد يمكن تلخيصها جميعاً فيما يلي:

١) تهتك الوليد واستهتاره ، وميله الشديد الى مراغمة الناس، ومجاهرته بعصيانه وآثامه ، واحتقار ماتواضعوا على احترامه.

٢) استغلال خصومه هذه الناحية منه واذاعة سوآته. مكبرة مبالغاً فيها ، نافخين في أبواق الفتنة ، مستثيرين. حمية الناس لتنفيرهم منه ، وكان ألد خصومه وأشدهم. تشهيراً به اثنان ، هشام قبل خلافة الوليد ويزيد بعدها.

٣) ثقة الوليد بنفسه وشدة اعتداده بقوته ، إلى حد أغفل. معه كل احتياط لدرء الفتنة والقضاء على دسائس خصومه وهي. في مهدها ، قبل أن تستفحل وتصل الى هذا الحد .

—٢—

الثورة

شجاعة الوليد

قالوا :

« كان الوليد شديد البطش ، طويل أصابع الرجلين ، وكان. يوتد له سكة حديد فيها خيط ، ويشد الخيط في رجله ثم يثب. على الدابة فينتزع السكة ويركب — ما يمس الدابة بيده ».

قالوا :

« ولما اندلعت نيران الثورة التي شبها « يزيد بن الوليد » عه

و بلغه ذلك ، أمر أصحابه فأخرجوا سريرا ؛ و جاس عليه ؛ و قال:
«أعلى توثب الرجال، و أنا أثب على الأسد؛ و أتخصر الافاعى؟» .

* * *

و هذا قليل من كثير مما يحدثنا به التاريخ عن شجاعته و رباطة جأشه و لكن ماذا تجديه شجاعته فى مثل هذا المأزق الحرج؟ و ماذا تغنيه قوته و رباطة جأشه أمام هذه الجموع الزاخرة المتألبة عليه ؟

ما ذا يفعل وقد خذله أنصاره ، وتفرق عن نصرته رجاله . وتم الامر - أوكاد - لخصمه يزيد بن الوليد » الذى عرف كيف يشهر به ، ويذيع مخازيه وآثامه مكبرة مجسمة فى الآفاق ؛ حتى بلغ إربته ؛ و بايعه أكثر الناس؟

ليس أمامه غير الهزيمة ، ولكنه لم يشأ أن يتعجلها ؛ وأبى الا الثبات لعل فيه فرجا ، ولم تخنه شجاعته فى هذا الظرف العصيب فخرج محارباً مستبسلا فى دفاعه !

و قد ظاهر بين درعين . كما يقول المؤرخون - و أتوه بفرسيه - «السندى» و «الزائد» فقاتل أعداءه قتالا شديداً »

— ٣ —

انخذال الوليد

و لكن رجلا من أعداء الوليد ناداهم :
« اقتلوا عدو الله قتلة قوم لوط ، ارموه بالحجارة ! » .

فلم يكد يسمع ذلك ، حتى شعر بالخيبة ، وأدرك أن أمره وشيك الزوال ، وعلم أن ليس فى استطاعته أن يصد هذه الجموع المتألبة الملتهبة حماسا ، وأن الدفاع فى هذا الموطن معناه الدمار

فلجأ مضطرا الى الانسحاب ! فدخل القصر وأغلق الباب ، ولكن أعداءه أحاطوا بالقصر

— ٤ —

محاسبة الوليد

قالوا :

فلما رأى الوليد هذه الجموع الزاخرة ، دنا من الباب فقال :

« أما فيكم رجل شريف له حسب وحياء أكلمه ؟

فقال له أحدهم : « كلمنى »

فقال له : « من أنت ؟ »

قال . « أنا يزيد بن عنبسة السكسكى ! »

قال : « يا أخا السكاسك !

ألم أزد فى أعطياتكم ؟ ألم أرفع المؤن عنكم ؟ ألم أعط فقراءكم ألم أخدم زمناكم ؟ »

فقال :

« إنا ما ننقم عليك فى أنفسنا ، ولكن ننقم عليك فى انتهاك ما حرم الله وشرب الخمر ، واتيان أولاد أمهات أبيك واستخفافك بأمر الله ! »

قال:

« حسبك يا أخا السكاسك ، فلعمرى لقد أكثرت وأغرقت وان فيما أحل لى لسعة ! »

ثم قال : « لعمرى لقد أكثرتم وأغرقتم ! أما والله لايرتق فتقكم ، ولا يلم شعثكم ، ولا تجمع كلمتكم ! »

— ٥ —

الساعة الاخيرة

تقسم كسرى رهطه بسيوفهم وأمسى أبو العباس(١) أحلام نائم
وقد كان لا يخشى انقلاب مكيدة عليه ولا جري النحوس الأشائم
مقيما على اللذات حتى بدت له وجوه المنايا حاسرات العمائم!
وقد ترد الايام غرا ، وربما وردن كلوحا ، باديات الشكائم!

« بشار بن برد »

وكذلك حان مصرع الوليد ؛ ودقت ساعته الأخيرة ، مؤذنة بذهابه من هذا العالم الى العالم الثانى .

وهنا يحدثنا الرواة ؛ فيقول أحدهم :

إن الوليد رجع الى الدار ، فجلس وأخذ مصحفا وقال :

« يوم كيوم عثمان »

ونشر المصحف يقرأ

---

(١) كنية الوليد

و فى هذا المنظر ما فيه من الروعة ، اذا تمثلنا المنظر الآخر المقابل له ، و أجلنا الفكر فيما بين الموقفين من التباين الشديد .

فهو هنا يتعزى بقراءة المصحف وهو يشعر بدنو أجله وقرب ساعته الاخيرة

و هو هناك يقرأ المصحف شامخا مستكبراً تائها ـ و أمره فى تمامه ـ فيرى فيه قوله تعالى : « فاستفتحوا و خاب كل جبار عنيد » .

فيشتعل غيظا وحقدا ، و تأخذه العزة بالاثم ، فيمزق المصحف و يلقى به الى الارض و يخرقه بالنشاب ، ثم ينشد غاضبا .

« أتوعد كل جبار عنيد   فها أنا ذاك جبار عنيد
اذا ما جئت ربك يوم حشر   فقل يارب ، مزقنى الوليد ! »

و شتان ما بين المنظرين !!

***

على أن الوليد ؛ لم يلبث أن عاوده شىء من صلفه و شجاعته . فلم يرض لنفسه استخذاء الذليل أمام الموت

قال أبو العلاء يحدثنا ـ فى رسالة الغفران ـ عن الوليد فى هذه الساعة :

« و يقال إنه لما أحيط به دخل القصر ؛ و أغلق بابه ؛ و قال :

دعوا لى « هندا » والرباب « فرتنى »   و مسمعة ، حسبى بذلك مالا
خذوا ملككم ـ لا ثبت الله ملككم ـ   فليس يساوى بعد ذاك عقالا

وخلوا سبيلى (قبل عير وما جرى) ولا تحسدونى أن أموت هزالا

فألب عن تلك المنزلة أى ألب ، و رؤي ر أسه فى فم كلب!»

— ٦ —

كيف قتل

رواية شاهد عيان

قال من شهد هذا المنظر المروع :

« نظرت الى شاب طويل على فرس ؛ فدنا من حائط القصر فعلاه ثم صار الى داخل القصر !

فدخلت القصر ، فاذا الوليد قائم فى قميص قصب ، وسراويل وشى ؛ ومعه سيف فى غمد ، و الناس يشتمونه»

وقال شاهد آخر :

وكان أول من علا الحائط هو عنبسة السكسكى؛ فنزل اليه و سيف الوليد الى جنبه ؛ فقال له : « نح سيفك »

فأجابه الوليد :

«لو أردت السيف لكانت لى ولك حالة غير هذه »

فأخذ الوليد، فنزل من الحائط عشرة

وقال بعض الرواة :

ومضى الوليد يريد الباب ؛ فضربه أحدهم على رأسه، وتعاوره الناس بأسيافهم ، فقتل .

وطرح أحدهم نفسه عليه يحتز رأسه (١)

— ٧ —

كيف مثلوا به؟

قالوا :

وأقبل آخر فسلخ من جلد الوليد قدر الكف . ثم انتهب الناس عسكره وخزائنه

« قد أمر «يزيد» بتنصيب الرأس ؛ فقال له بعض خواصه (واسمه ابن فروه) — «انما تنصب رءوس الخوارج ، وهذا ابن عمك وخليفة ! ولا آمن -إن نصبته -أن ترق له قلوب الناس فيغضب له أهل بيته ! »

فقال :

« والله لأنصبنه ! »

ونصبه على رمح ، ثم قال :

«انطلق ، فطف به مدينة دمشق ، وأدخله دار أبيه »

ففعل ، وثم صاح الناس وأهل الدار وانزعجوا من ذلك أشد الانزعاج »

وكذلك أسدل الستار على حياة هذا المستهتر الجبار !

(١) قالوا . « وكان يزيد قد جعل فى رأس الوليد مائة الف »

خلاعة الوليد واستهتاره

قلنا فى الفصل السابق إن أول الأسباب التى تضافرت على اهلاك الوليد، خلاعته وتفانيه في لهوه وفجوره، ووعدنا فى ختامه بالالمام بطائفة من مخازيه وآثامه وليس يسعنا أن نبر بهذا الوعد، دون أن نضطر الى ذكر كثير من الأشياء التى ينبو عنها الذوق؛ وتأباها الآداب الكريمة، لهذا تجاوزنا عن كثير من فحشه، وألممنا بما يمكننا الالمام به من مخزيات هى ـ على شناعتها ـ أقل ما اقترفه من الدنايا، وهى ـ على أمعانها فى الفجر ـ أيسر من غيرها وأخف على النفس من سواها

«أبو الوليد»

واذا صدق القائل:

هذى العصا من هذه العصية لا تلد الحية إلا حية!

فما أصدق هذا القول، وما أشد انطباقه على الوليد وأبيه معا. فقد حدثنا المؤرخون عن نزعة أبيه الى اللهو والقصف، وشغفه بحبابة المغنية واشتهاره بذكرها، بما فيه من الكفاية. قالوا:

كان يزيد «أبو الوليد» قد حج أيام سليمان أخيه، فاشترى

« حبابة » بأربعة آلاف دينار. فقال سليمان

« لقد هممت أن أحجر على يزيد ! »

فلما سمع يزيد : ردها فاشتراها رجل من أهل مصر ،

فلما أفضت الخلافة اليه ؛ قالت له امرأته « سعدة » .

« هل بقي من الدنيا شيء تتمناه ؟ »

فقال . « نعم ، حبابة ! » قالوا .

فأرسلت فاشترتها وصنعتها ، وأتت بها يزيد ، وأجلستها من وراء الستر

فقالت : « ياأمير المؤمنين ! أبقي من الدنيا شيء تتمناه ؟ »

قال . « أعلمتك »

فرفعت الستر وقالت . « هذه حبابة » وقامت وتركتها عنده فحظيت سعدة عنده وأكرمها !

وقال يوماً ـ وقد طرب بغناء حبابة ـ

« دعوني أطير » وأهوى ليطير

فقالت ياأمير المؤمنين ان لنا فيك حاجة ! فقال « والله لأطيرن »

فقالت . فعلى من تدع الامة والملك ؟ قال لها : «عليك والله »

وقبل يدها ، فخرج بعض خدمه وهو يقول .

«سخنت عينك ما أسخفك !» قالوا .

وخرجت معه الى ناحية الاردن يتنزهان ، فرماها بحبة عنب

فاستقبلتها بفيها فدخلت حلقها ، فشرقت بها وماتت: فتركها ثلاثة أيام لا يدفنها ؛ حتى نتنت وهو يشمها وينظر اليها ويبكى، فلما دفنت بقى بعدها خمسة عشر يوماً ومات ، ودفن الى جانبها !

مؤدب الوليد

قالوا : « وكان عبد الصمد بن عبد الأعلى ، مؤدباً للوليد ، وكان زنديقا فحمل الوليد على الشراب والاستخفاف بدينه »

ندمان الوليد

قالوا : « ولما ولى الوليد لم يزدد من الذي كان فيه - من اللهو والركوب للصيد وشرب الخمر ومنادمة الفساق - الا تمادياً »

واذا صدق القائل :

عن المرء لا تسأل، وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدى

فان ندمان الوليد وخلانه ، كانوا نخبة مختارة من الفساق والمجان والمستهترين بلغوا فى العهر غايته ووصلوا في الفجر الى نهايته.

أليس من ندمانه ومغنيه وأقرب المقربين اليه ، « ابن عائشة » الذى يجيب بعض سائليه بقوله :

« غنيت أمير المؤمنين صوتاً ، فأطربته ، فكفر وترك الصلاة وأمر لى بهذا المال وهذه الكسوة »

نعم ؛ وهو الذي يحدثنا عنه صاحب ستر الوليد فيقول :

«إن ابن عائشه غناه ذات يوم :

إنى رأيت صبيحة النفر حورا نفين عزيمة الصبر
مثل الكواكب فى مطالعها بعد العشاء، وطفن بالبدر
وخرجت أبغى الاجر محتسباً فرجعت موفوراً من الوزر

فطرب الوليد وألحد» الى أن يقول :

«ثم أكب الوليد على ابن عائشة المغنى ثم لم يبق عضوا من اعضائه الا قبله! » ثم ماذا ؟

ثم بقية هذا الخبر الذى لا يحتمل المقام روايته، لبذاءته وفحشه.

* * *

وليس ابن عائشة الا واحدا من كثيرين حفلت بهم مجالس الوليد ومغانيه، وكان له معهم ما يخجل القلم من ذكره .

هذا عمر بن أبى ربيعة يرجع من أحد مجالس الوليد، فيسأل:

« ما الذى كنت تضحك أمير المؤمنين به ؟» فيجيب سائله :

« ما زلنا فى حديث الزنا حتى رجعنا ! »

الحق أن الوليد قد وصل به الاستهتار الى أبعد الغايات، وطوح به فى مهاوى الغواية حتى تردى فى ظلماتها السحيقة .

الوليد يخطب الناس شعراً وهو سكران

قالوا : «خرج الوليد ـ وكان مع اصحابه على شراب ـ فقيل له

« إن اليوم الجمعة ! »

فقال والله لأخطبنهم اليوم بشعر . فصعد المنبر فخطب . فقال

الحمد لله ولى الحمد　　أحمده فى يسرنا والجهد

وهو الذى فى الكرب أستعين　　وهو الذى ليس له قرين

أشهد فى الدنيا وما سواها　　ان لا اله غيره الها

ما ان له فى خلقه شريك　　قد خضعت لملكه الملوك

أشهد أن الدين دين أحمد　　فليس من خالفه بمهتد

وأنه رسول رب العرش　　القادر الفرد الشديد البطش

أرسله فى خلقه نذيرا　　وبالكتاب واعظاً بشيراً

ليظهر الله بذاك الدينا　　وقد جعلنا قبل مشركينا

***

من يطع الله ، فقد أصابا　　أو يعصه ـ أو الرسول ـ خابا

ثم القران والهدى السبيل　　قد بقيا لما مضى الرسول

كأنه لما بقى لديكم　　حى صحيح لا يزال فيكم

إنكم من بعد ـ إن تزلوا　　عن قصده أو نهجه ، تضلوا

لا تتركن نصحى فانى ناصح　　إن الطريق فاعلمن واضح

من يتق الله يجد غب التقى　　يوم الحساب سائراً الى الهدى

إن التقى أفضل شىء فى العمل　　أرى جماع البر فيه قد دخل

الى آخر هذه الخطبة !

ومن نوادره الطريفة ، ماحدث له مع الوليد البندار الذى يحدثنا فيقول :(١)

حججت مع الوليد بن يزيد ، فقلت له لما أراد أن يخطب الناس:

« أيها الامير :

إن اليوم يوم يشهده الناس من الآفاق وأريد أن يشرفني بشيء!»

قال : « وما هو ؟ »

قلت : « إذا علوت المنبر دعوت بى فيتحدث الناس بذلك، وبأنك أسررت الى شيئاً ! »

فقال : « أفعل ! » فلما جلس على المنبر قال :

« الوليد البندار! » فقمت اليه ، فقال:

« ادن منى » فدنوت . فأخذ بأذنى ثم قال :

« البندار ولد زنا ؛ والوليد ولد زنا ؛ وكل من ترى من حولنا ولد زنا ،أفهمت ؟ »

---

(١) مجلس من مجالس الوليد

حدث بعض الموالين للوليد فقال — :

كنت عند «هشام» وعنده الزهرى فذكر الوليد، فتنقصاه وعاباه عيبا شديداً ولم أعرض فى شيء مما كانا فيه فاستأذن الوليد فأذن له — وأنا أعرف الغضب فى وجهه فجلس قليلا ثم قام

فلما مات هشام كتب فى فحملت اليه فرحب بى وقال :

قلت : « نعم » قال : « انزل الآن ! «فنزلت ! »

« كيف حالك يا ابن ذكوان ؟ »

وألطف المسأله بى ثم قال — :

« أتذكر يوم الاحول » هشام الخليفة، وعنده الفاسق « الزهرى » وهما يعيبانى »

قلت« أذكر ذلك فلم أعرض فى شىء مما كان فيه »

قال—: «صدقت» أرأيت الغلام الذى كان على رأس هشام ؟»

قلت : « نعم »

قال : « فانه نمى الى ماقالا ! وايم الله لو بقى الفاسق لقتلته »

قلت « قد عرفت الغضب فى وجهك حين دخلت! »

ثم قال — :

« يا ابن ذكوان ! ذهب الأحول بعمرى ! »

فقلت : —

« بل يطيل الله عمرك يا أمير المؤمنين ، ويمتع الأمة ببقائك ، فدعا بالعشاء فتعشينا وجاءت المغرب فصلينا وتحدثنا حتى جاءت العشاء الآخرة فصلينا ، وجلس ، قال : « اسقنى » فجاءوا باناء مغطى وجاء ثلاث جوار فصففن بين يديه بينى وبينه ، ثم شرب وذهبن فتحدثنا

واستسقى فصنعن مثل ماصنعن أولا

فما زال على ذلك يتحدث ويستسقى ويصنعن مثل ذلك ، حتى طلع الفجر فأحصيت له سبعين قدحا . »

***

ميله الى مذهب مانى (١)

وقد عزا اليه بعض المؤرخين ميله الى الأخذ بالمذهب المانوى وروى «ابن القارح»:

أن الوليد أحضر ذات يوم صورة رجل فسجد له وقبله، وقال لبعض الناس: «اسجد له ياعلج»

فقال: «ومن هذا؟»

قال: «هذا «مانى» شأنه كان عظيما؛ اضمحل أمره لطول المدة»

نقول: ولعل هذا من أعف مجالس الوليد، ونحب أن لاينسى القارىء أن راوى هذا الخبر ليس من أعداء الوليد ولا من المتحاملين عليه.

على أن للوليد أخبارا أخرى لاسبيل لنا إلى ذكرها فى هذا المقام لشناعتها وفحشها

(١) مانى هو زعيم المذهب المانوى ومؤسسه

ظهر فى أيام سابور بن أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور سنة ٢٧٧م وهو يزعم أن العالم مصنوع من أصلين قديمين، هما النور والظلمة وأنهما أزليان سرمديان، وأنه مامن شىء الا وهو من أصل قديم، وأن الخير كله من النور، والشر كله من الظلمة. وقد أشار المتنبى الى ذلك فى قوله يمدح كافور الاخشيدى:

«وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن «المانوية» تكذب

وقاك ردى الاعداء تسرى اليهم وزارك فيه ذو الدلال المحجب»

فقال : « لا يجوز السجود الا لله » فقال : « قم عنا »

قال ابن القارح : وكان يشرب على سطح ، و بين يديه باطية كبيرة بلور ، و فيها أقداح ، فقال لندمائه :

« أين القمر الليلة ؟ » فقال بعضهم : « فى الباطية »

فقال : « صدقت ، أتيت على ما فى نفسى ، والله لأشربن المفتجة (١) »

وكان بموضع حول دمشق : يقال له « البحر » فقال :

« تلعب بالنبوة هاشمى بلا وحى أتاه ولا كتاب »

فقتل به، و رأوا رأسه في الباطية التى أراد أن يهفتج بها »

(كلمة ختامية)

ونذكر - قبل أن نختم هذا الفصل - كلمة أبى العلاء التى أوجز بها رأيه في الوليد ، وهى قوله (٢)

وأما الوليد بن يزيد ، فكان عقله عقل وليد ، وقد بلغ سن الكهل ، وقد رويت له أشعار يلحق به منها العار ، كقوله :

« أدنيا منى خليلى « عبد لا » دون الازار

فلقد أيقنت أنى غير مبعوث لنار

(١) شرب الخمر سبعة أسابيع متتالية

(٢) رسالة الغفران « ج ٢ ص ٤٤ »

واتركا من يطلب الجنـ ـة ، يسعى فى خسار
سأروض النـاس حتى يركبـوا دين الحمار»
فالعجب لزمان صير مثله إماماً !

ولعل مثله ـ ممن ملك ـ يعتقد مثله أو قريباً ، ولكن يساير ويخاف تثريباً.

* * *

ومما يروى له قوله :

«أنا الامام الوليد مفتخراً أجر بردى وأسمع الغزلا
ما العيش الا سماع محسنة وقهوة تترك الفتى ثملا
أسحب ذيلى الى منازلها ولا أبالى من لام أو عذلا
لا أرتجى الحور فى الجنان وهل يأمل حور الجنان من عقلا
اذا حبتك الوصال غانية فجازها بذلها، كمن وصلا»

مصرع مروان الجعدى (١)

أو

«حمار الجزيرة»

« ولو علم بنو مروان أنهم إنما يوقدون
على رضف يلقونه فى أجوافهم،ما فعلوا ».
« الوليد الثانى »

***

كيف صرع

« وطعنه رجل من أهل البصرة؛ وهو لا يعرفه فصرعه، فصاح، صائح: « صرع أمير المؤمنين! » وابتدروه. فسبق اليه رجل من أهل الكوفة — كان يبيع الرمان فاحتز رأسه! »

« المؤرخون »

---

(١) هو مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ويلقب بحمار الجزيرة ويكنى أبا عبد الملك، كانت ولايته — من حين بويع الى أن قتل — خمس سنين وعشرة أشهر وستة عشر يوما. وكان قتله يوم الأحد لثلاث بقين من ذى الحجة سنه ١٣٢، وكانت سنه يوم قتل اثنين وستين عاما — فى قول بعض المؤرخين — وكانت موقعة «الزاب» المشهورة، قضاء مبرما عليه وعلى جيشه، فقد اندحر مروان فيها يوم السبت لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ١٣٢. وقد اقترن مصرعه بمصرع الدولة الأموية فكان مصرعا مزدوجا،

(١) طلائع الثورة

فراخ عامين ، إلاأنها كبرت   لما يطرن ، وقدسربلن بالزغب
فان يطرن ـ ولم يحتل لهن بها   يلهبن نيران حرب ، أيما لهب
« نصر بن سيار »

ولكن الفراخ كبرت وطارت ولم يحتل لها ؛ فصحت نبوءة « نصر بن سيار » وألهبت نيران حرب شعواء ، ذكا أوارها واندلع لهيبها ، فكان وقودها مروان الجعدى والدولة الأموية معاً ، ولم تخمد جذوة هذه النار المستعرة ، الا بعد أن أتت على الأخضر واليابس وغيرت وجه التاريخ وأحدثت انقلابا هائلا فى كل مرافق الأمة العربية وشئونها تقريبا.

لقد رأى « نصر بن سيار » خطر المنافسين يتعاظم يوما بعد يوم ؛ وشاهد أتباعهم فى ازدياد ، ودعوتهم فى ذيوع وانتشار ، فلم يدخر وسعا فى تحذير الأمويين من أعدائهم واحتثاث هممهم ليقضوا على الثورة ـ وهى في مهدها ـ وكان يري نجاح دعوة « أبى مسلم الخراسانى » واتساع نطاقها ، فيبعث التحذير بعد التحذير والانذار تلو الانذار حتى بح صوته وذهبت صيحاته كلها أدراج الرياح !

ولعل أحدا لا يجهل أبياته الصادقة التى ختم بها إحدى كتبه التى بعث بها إلى مروان الجعدي ، حين رأى انتشار الدعوة

لبنى العباس وذيوعها فى خراسان سنة ١٢٩ ، وهى قوله :

«أرى خلل الرماد وميض جمر — فأحج بأن يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تذكى — وإن الحرب ، مبدؤها الكلام
فقلت من التعجب «ليت شعرى — أأيقاظ أمية ، أم نيام ! »

ولكن بنى أمية كانوا نياماً عن عدائهم ، منهمكين فى إشباع شهواتهم الحقيرة، مشتغلين بالانتقام بعضهم من بعض ، لاهم لهم إلا التباغض واثارة الفتن الداخلية بينهم ، حتى جاءهم أمر الله فامحى ملكهم من المشرق ، وقضى عليهم قضاء مبرما فى سنة ١٣٢ﻫ وصدق قول القائل : « ولكل أهل بيت مشائيم يغير الله النعمة بهم ولن ينتقل سلطان قوم قط إلا فى تشتيت كلمتهم ! » كما صح فيهم قول من قال :

«أوتيت ملكا، فلم أحسن سياسته — كذاك من لا يسوس الملك يخلعه»

(٢) موقعة الزاب سنة ١٣٢ ﻫ

« كل شيء قاتل — حين تلقى أجلك»

ليس أدل من هذه الموقعة على الفوضى الضاربة أطنابها فى جيش الأمويين والتخاذل الشامل وسوء الرأي ، فقد تجلت فى هذه الموقعة صفات النذالة والاحجام فى أكثر الجيش الأموى واضحة جلية : كما تجلى فيها ارتباك مروان وخوره وتوانيه فى رسم خطة يسير عليها جيشه قبل أن يلتحم فى المعركة ، وكان

لاحجام قواده ومخالفتهم أوامره أسوأ النتائج وأبعد الأثر فى هز يمتهم الشاملة ، أما « الوليدبن معاوية بن مروان » صهر الجعدى فقد ذكرتنا حماقته وتهوره ؛ بصهر عثمان ـ رضى الله عنه ـ وما أبداه من خرق فى مخالفة رأيه .

لقد أمر « الجعدى » جيشه ألا يبدأ القتال وقر رأيه على ذلك ولكن صهره الأحمق « الوليد بن معاوية » بدأ القتال فحمل على الميمنة فاشتبكت الحرب ـ على رغم الجعدي ؛ واستعرت لظاها فجأة أيما استعار ، ونفذ قضاء الله

وهنا يسرع « مروان الجعدى » ـ بعد أن نفذ السهم فيقول لقضاعة : « احملوا » فيقولون له : « قل لبنى عامر فليحملوا »

فيرسل الى « السكون » أن احملوا فيقولون . « قل لغطفان فليحملوا »

فيقول لصاحب الشرطة . « انزل » فيجيبه . والله ما كنت لأجعل نفسى غرضاً »

فيقول له الخليفة متوعدا . « أما والله لأسوئنك »

فيجيبه صاحب الشرطة هازئا . ـ « وددت والله أنك قدرت على ذلك »

وثم زادار تباك مروان ، وتعاظم خباله ؛ أمام جيش الخراسانيين فكان ـ كما يقول المؤرخون ـ لا يدبر شيئاً إلا كان فيه الخلل والفساد ..

أراد أن يشجع رجال جيشه وهم يقتتلون ـ فأمر بأموال فأخرجت وقال للناس . « اصطبروا وقاتلوا فهذه الأموال لكم»

فانعكست الآية ؛ وتهافتت فئة منهم على ذلك المال فجعلت تصيب منه

فلما قالوا له . « إن الناس قد مالوا عن هذا المال ؛ ولا تأمنهم أن يذهبوا به » أراد أن يتدارك هذا الخطأ ، فوقع فيما هو شر منه ؛ فقد أرسل إلى ابنه « عبد الله » أن يسير في صحابته إلى مؤخر عسكره فيقتل من أخذ من ذلك المال ويمنعهم !

فماذا كانت النتيجة

رأى الناس « عبد الله » وقد مال برايته وأصحابه ، فحسبوهم مولين ؛ فصاحوا « الهزيمة » ، فكانت الهزيمة الشاملة !

وبمثل هذه التصرفات العجيبة المرتبكة الخاطئة ، اندحر الجيش الأموي وانهزم مروان في موقعة « الزاب » شر هزيمة

قالوا : « وقطع الجسر ، فكان من غرق يومئذ أكثر ممن قتل »

(٣) فرار الخليفة

«كذبتم أمير المؤمنين لا يفر»

قالوا . «وانهزم مروان حتى وصل مدينة الموصل ، فناداهم أهل الشام «هذا مروان !» فقالوا . كذبتم أمير المؤمنين لا يفر

(٤) طريق الفرار

ولكن أمير المؤمنين قد فر وأمعن فى فراره ، فما يكاد يستقر بموضع حتى تداهمه طلائع العدو ، فيغادره هاربا إلى موضع آخر فر إلى «حران» فأقام بها نيفا وعشرين يوماً ، ومضى منهزماً حتى مر بقنسرين و «عبد الله بن على» متبع له ؛ ثم هرب مروان إلى «حمص» فأقام بها يومين أو ثلاثة، ثم شخص منها وهو مرعوب منهزم ؛ ومضى حتى مر بدمشق وتركها حتى قدم «فلسطين» وتابع فراره حتى وصل إلى مصر .

(٥) مطاردته فى مصر

وجاء كتاب «أبى العباس» يأمر بتوجيه «صالح بن على» فى طلب «مروان» فسار صالح بن على فى ذى القعدة حتى نزل بالرملة ؛ وسار «صالح» بجيشه حتى نزل ساحل البحر وتجهز يريد «مروان» الهارب بالفرماء حتى نزل صالح «بالعريش»

فلما علم مروان بذلك أحرق ما كان حوله من علف وطعام وهرب ؛ قالوا .

« ومضى صالح بن على فنزل النيل، ثم سار حتى نزل الصعيد، وبلغه أن خيلا لمروان بالساحل يحرقون الأعلاف فوجه اليهم قوادا : فأخذوا رجالا فقدموا بهم على «صالح » - وهو بالفسطاط - فعبر مروان النيل وقطع الجسر وحرق ما حوله ؛ ومضى صالح يتبعه فالتقى - هو وخيل لمروان - على النيل فاقتتلوا، فهزمهم صالح

وهكذا ظل يطارده « صالح » حتى اهتدى إلى مكانه الذى لجأ اليه فى كنيسة « بوصير »

(٦) خاتمة مروان - كيف صرع

قالوا ؛ فوافوهم في آخر الليل ، فهرب الجند ، وخرج اليهم « مروان » - في نفر يسير - فأحاطوا به

قالوا : وطعنه رجل - من أهل البصرة ، وهو لا يعرفه فصرعه.

فصاح صائح : «صرع أمير المؤمنين»

وابتدروه فسبق اليه رجل من أهل الكوفة كان يبيع الرمان. فاحتز رأسه !

* * *

وهنا يروى لنا بعض المؤرخين ، رواية أقرب إلى القصص والخيال - وإن كانت غير مستحيلة الوقوع - فيقول:

إنهم لما أحضروا رأسه قدام صالح بن على أمر أن ينفض فانقطع لسانه فأخذه هر وأرسله صالح إلى السفاح وقال :

قد فتح الله مصر عنوة بكم   وأهلك الفاجر الجعدي إذظلما

وذاك مقوله، هر يجرره   وكان ربك من ذى الكفر منتقما

قالوا ولما وصل الرأس إلى السفاح وهو بالكوفة سجد شكراً لله !



مصرع مروان
ومصرع الدولة الاموية

الاسباب التي أدت الى ذلك

انتزعت الدولة الاموية الخلافة انتزاعا ، بفضل دهاء معاوية وانتفاعه باستغلال الظروف ،ولم يكد يستقر أمرها حتى قامت أمامها عقبات شتى ، ونازعها الملك ثوار قادرون فلم يكد يخلو عهد واحد من عهودها من فتن وقلاقل .

كان يناوئها الشيعة ودعاة بني العباس والخوارج وأتباع عبد الله ابن الزبير والمختار وغيرهم . فلم يكن لخلفائها بد من اليقظة التامة والحذر الدائم، وبهاتين الخلتين استطاع الأقوياء منهم أن يخمدوا نيرانا مستعرة ، ما كانوا ليقدروا على اخمادها لولا ما امتازوا به من حكمة وسياسة وماعرفوا به من الانصراف لشؤون الملك ، وافتنانهم في التنكيل بأعدائهم

وكان من الطبيعي أن يتربص الموتور بواتره الدوائر ، و يتحين الفرص للتنكيل به ، ولئن أخفق العلويون والعباسيون في مسعاهم أيام صولة الدولة فقتل من أئمتهم أعلام ، ألهب فقدهم قلوبهم

حقداً على بنى أمية ، فما نسوا الثأر لحظة واحدة (١) . وظلوا مثابرين على ذلك حتى أمكنتهم الفرص من عدوهم .

تفرق كلمة الامويين

ذكرنا فى مصرع الوليد الثانى ، انه كان إيذاناً بمصرع الدولة الأموية الوشيك ، ينتقم الوليد من ولدى عمه ومن انصار هشام لقد ويؤلب يزيد الناس على الوليد ملهباً فى نفوسهم الحماسة الدينية ، رافعاً أمامهم علم الثورة حتي اذا تم الامر ليزيد الناقص (٢) أظهر مروان بن محمد الخلاف له ، فاذا مات يزيد وولى الخلافة

---

(١) لم ينسوا ثأر الحسين بن على الذى قتل فى عهد يزيد ، ولا ثأر زيد بن على - وهو حفيده - وقد قتل سنة ١٢٢ ﻫ فى خلافة هشام . فقدخرج زيد بن على بالكوفة ودعا الى نفسه و بايعه جمع كثير ، وكان واليها يومئذ يوسف بن عمر الثقفى . فجمع العسكر وقاتل زيدا ؛ قالوا « فأصاب زيدا سهم فى جبهته ، فأدخل بعض الدور ونزعوا السهم من جبهته ثم مات ، ولم يكتف يوسف بذلك بل بحث عن جثته بعد موته فاستخرجها وصلبها ، وبعث رأسه الى هشام بن عبد الملك وظلت جثته مصلوبة حتى مات هشام فلما ولى الوليد أمر بحرق جثته فأحرقت . كذلك لم ينسوا مصرع ابراهيم الامام الذى قبض عليه مروان الجعدى .

(٢) سمى كذلك لانه نقص أعطية الجند ، وما كاد يتولى الخلافة حتى ثار عليه أهل حمص وأهل فلسطين وغيرهم

أخوه « ابراهيم » لم يتم له الامر لاضطراب الاحوال (١) ومناوأة الجعدى له ، والحروب التى أشعل نار هاضده وانتهت بهزيمة ابراهيم ، فاذا بويع للجعدى ، ثار عليه أهل حمص فلا يكاد يخضعهم له حتى يسمع بخلاف أهل الغوطة وحصارهم دمشق ، فلا يكاد يهزمهم جيشه حتى يثور أهل فلسطين ، فيرسل اليهم من يهزمهم ، ثم يشق عصا الطاعة « سليمان بن هشام بن عبد الملك » و يجتمع اليه من أهل الشام عدد كبير ، فاذا هزمه مروان ، هرب سليمان الى حمص فألب عليه أهلها ، فلا يكاد يهزمه مروان حتى يهرب الى « تدمر »

هكذا تفرقت كلمة بنى أمية ،واشتغلوا بقتال انفسهم عن قتال عدائهم ، فلم يصغ مروان الجعدى الى نصائح نصر بن سيار وتحذيره من استفحال دعوة العباسيين لأنه كان مشغولا بالانتقام من أقاربه وأبناء أسرته .

توحيد الدعوة ضد الأمويين

كان من أكبر الطامحين الى الخلافة أسرتان عظيمتان ، الأسرة العلوية والأسرة العباسية ، وكان كل منهما يدعو الى نفسه ؛ وقد فطن العباسيون الى ما فى ذلك من تفرق الكلمة ، مع

---

(١) مكث فى الخلافة نحو سبعين يوما وكان يسلم عليه بالخلافة تارة وتارة بالامارة

حاجتهم الى الاتحاد ضد عدوهم المشترك ، فاعملوا جهودهم فى حل هذه العقدة ، حتى وفقوا الى حيلة عجيبة — كما يقول الاستاذ نيكلسون — واهتدوا الى نداء شامل تنضوي تحته دعوتا الأسرتين

فالعلويون أبناء على بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم !

والعباسيون ابناء العباس بن عبد المطلب بن هاشم

فالعباس وعبد المطلب أعمام النبي يلتقيان معه فى جدهم هاشم ففيم الخلاف وتشتيت الكلمة ؟ لتكن الدعوة اذن باسم جدهم هاشم . وقد نجح العباسيون فى هذه الحيلة حتى اذا أدركوا غايتهم ، انفردوا بالأمر وحدهم .

أسباب اخرى

بقى هناك أسباب كثيرة اخرى لايتسع المقام لتفصيلها فلنجتزىء بذكر اهمها، وهى :

(١) توفق العباسيين الى أبى مسلم الخراسانى الذى قام بأكبر قسط فى تنشيط الدعوة الى العباسين.

(٢) ترفع الأمويين عن مخالطة الاجناس الأخرى غير العرب ، واطلاقهم عليهم اسم الموالى ، مما بغضهم فيهم وجعلهم ينضمون الى مناوئيهم ليتخلصوا من دولتهم المبغضة اليهم

(٣) تغالى الاحزاب المناصرة لآل البيت و الشيعة وماتركه شعر دعاتهم من الاثر الدينى فى نفوسهم (اقرأ شعر الكميت مثلا)

فاذا أضفنا الى ذلك ما أسلفنا ذكره من الفتن الداخلية

(١) التي أشعل نارها يزيد ضد الوليد

(٢) « « مروان الجعدى ضد يزيد

(٣) « « سليمان بن هشام ضد مروان

وزدنا على ذلك تخاذل الامويين فى موقعة الزاب وسوء رأى مروان الجعدي وقواده ، سهل علينا فهم الاسباب التى أودت بهذه الدولة العظيمة وأزالتها من عالم الوجود .



مصرع الأمين

« ويا دهر لحاك الله ماهنأت فرحانك »

« أبو العلاء »

« فنخسه واحد بالسيف فى خاصرته ، وركبوه وذبحوه من قفاه »

« المؤرخون »

(١) حلم الأمين

قال الأمين:

« رأيت فى منامى كأنى قائم على حائط من آجر شاهق فى السماء ، عريض الأساس ، لم أر مثله في الطول ولا فى العرض ، وعلىّ سوادي ومنطقتى وسيفى ، وكان « طاهر » فى أصل ذلك الحائط ، فما زال يضربه حتى سقط وسقطت ؛ وطارت قلنسوتى عن رأسى »

(٢) فى أواخر أيامه

وهكذا امتلأت نفس « الأمين » بالهواجس - في يقظته وفى نومه - فأصبح لا يهدأ له بال ولا يقر له قرار - بعد أن حصره

« طاهر » وأخذ عليه الأبواب ومنع منه ومن أهل المدينة الدقيق والماء وغيرهما (١)

---

(١) انظر الى الأمين - وقد ضيق عليه طاهر الحصار - وتقدت أمواله وأمر بعض خدامه ببيع ما بقى فى الخزائن فوجد أصحابه قد انتهبوها ولم يبقوا فيها شيئا

ثم طلب الناس الارزاق فقال متضجرا :-

« وددت أن الله قتل الفريقين جميعا وأراح الناس منهم ، فامنهم الا عدو - ممن معنا وممن علينا - أما هؤلاء فيريدون مالى . وأما أولئك فيريدون نفسى »

***

وانظر اليه - وقد تفرق عنه عامة جنده وخصيانه وجواريه فى السكك والطرق ، لا يلوى أحد منهم على أحد .

قالوا :

« وحصره طاهر وأخذ عليه الأبواب ، ومنع منه ومن أهل المدينة الدقيق والماء وغيرهما

ومازال طاهر يضيق عليه الحصار حتى لم يبق عند الامين ما يأكله» كما يحدثنا بذلك خادمه الذي نترك له رواية ذلك - :

سألنى الامين - ذات يوم من الأيام وهو محصور - أن أطعمه شيئا ، فدخلت المطبخ فلم أجد شيئا ، فجئت الى جارية فقلت - :

«إن أمير المؤمنين جائع ، فهل عندك شيء فأنى لم أجد فى المطبخ شيئا»

فقالت لجارية أخرى - :

وليس أصدق - فى تمثيل ما وصل اليه من الرعب والفزع من هذا الحلم.

على أن «الأمين» قد حاول أن يرفه عن نفسه أو يذهل عن حقيقة موقفه فلم يستطع الى ذلك سبيلا، وأبى القدر المحتوم إلا أن يتضافر كل شىء على إزعاجه وتكدير صفوه!

قال ابراهيم بن المهدى -:

خرج الأمين - ذات ليلة - يريد أن يتفرج من الضيق الذى هو فيه، فصار إلى قصر له بناحية «الخلد» ثم أرسل إلى فحضرت عنده، فقال: «ترى طيب هذه الليلة وحسن القمر فى السماء، وضوءه فى الماء على شاطىء «دجلة» فهل لك فى الشرب؟»

فقلت: «شأنك»

فشرب رطلا، وسقانى آخر، ثم غنيته ما كنت أعلم أنه يحبه، فقال لى: «ما تقول فيمن يضرب عليك؟» فقلت: «ما أحوجنى اليه!»

فدعا بجارية متقدمة عنده اسمها «ضعف».

«أى شىء عندك؟»

فجاءت بدجاجة ورغيف فأتيته بهما فأكل

وطلب ماء يشرب به فلم يوجد فى خزانة الشراب

تامسى - وقد كان عزم على لقاء «هرثمة» فاشرب حتى أتى عليه -

فتطيرت من اسمها ونحن فى تلك الحال ، فقال لها : « غنى » .

فغنت شعر الجعدي :

« كليب لعمري كان أكثر ناصراً　　وأيسر جرماً منك ضرج بالدم »

فاشتد ذلك عليه ، وتطير منه ، وقال : « غنى لنا غير ذلك » .

فغنت :

« أبكى فراقكم عينى ، فأرقها　　إن التفرق للأحباب بكاء

مازال يعدو عليهم ريب دهرهم　　حتى تفانوا ، وريب الدهر عداء »

فقال لها : « لعنك الله ! أما تعرفين من الغناء غير هذا »

فقالت : « ما تغنيت إلا ما ظننت أنك تحبه » ثم غنت آخر :

« أما ورب السكون والحرك　　إن المنايا كثيرة الشرك

ما اختلف الليل والنهار ، وما　　دارت نجوم السماء فى الفلك

إلا لنقل السلطان عن ملك　　قد زال سلطانه إلى ملك

وملك ذي العرش دائم أبداً　　ليس بفان ، ولا بمشترك »

* * *

فقال لها : « قومى ، غضب الله عليك ولعنك : »

وكان له قدح من بللور حسن الصنعة ، وكان موضوعاً بين يديه ، فعثرت الجارية به فكسرته ، فقال :

« ويحك ياابراهيم ! أماترى ماجاءت هذه الجارية ، ثم ما كان من كسر القدح ؟ والله ماأظن أمرى إلا قد قرب ! »

فقلت : « يديم الله ملكك ، ويعز سلطانك ، ويكبت عدوك» فما استتم الكلام، حتى سمعنا صوتا : « قضى الامر الذي فيه تستفتيان».

فقال : « ياإبراهيم أما سمعت ماسمعت ؟ »

قلت : « ماسمعت شيئاً ، وكنت قد سمعت

قال : « تسمع حسا »

فدنوت من الشط، فلم أرشيئا ، ثم عاودنا الحديث ، فعاد الصوت بمثله ، فقام من مجلسه مغتما الى مجلسه بالمدينة.

قال :« فما مضى الا ليلة أو ليلتان حتى قتل !»

٭

(٣) يوم الوداع

قالوا:

ودعا بابنيه ، فضمهما اليه ، وقبلهما وبكى ، وقال: «أستودعكما الله ـ عز جل » ودمعت عيناه فمسح دموعه بكمه

ثم جاء راكباً إلى الشط ، فاذا حراقة « هرثمة » فصعد اليها فاحسن هرثمة لقاءه .

وهنا بغتهم أصحاب « طاهر » فى الزواريق ، فنقبوا الحراقة فغرقت بهم بعد أن رموهم بالآجر والنشاب ، وسقط« الأمين» إلى الماء فشق ثيابه ؛ حتى خرج إلى الشط حيث قبض عليه

(٤) ذلة العزيز

قال من رآه :

لما ذهب من الليل ساعة ، رأيت الباب قد فتح ، وأدخلوا الأمين ـ وهو عريان ـ وعليه سراويل وعمامة وعلى كتفه خرقة خلقة.

فتركوه معى ، فاسترجعت وبكيت فيما بينى وبين نفسى فسألنى عن اسمى فعرفته.

فقال : « ضمنى اليك فانى لأُجد وحشة شديدة »

قال : « فضممته إلى ، واذا قلبه يخفق حفقاناً شديداً »

فقال : « يا أحمد ما فعل أخى »

قلت : « هو حى »

قال « قبح الله بريدهم ، كان يقول قد مات ! »

(وكأنما قال ذلك معتذراً من محاربته)

فقلت : « بل قبح الله وزراءك ! »

فقال الأمين : « ماتراهم يصنعون بى ، أيقتلوننى ، أم يفون لى بأمانهم ؟ »

فقلت : « بل يفون لك

وجعل يضم الخرقة على كتفه ، فنزعت مبطنة كانت علىّ ، وقلت : « ألق هذه عليك ! » .

فقال : « دعنى ، فهو من الله عز وجل ـ فى مثل هذا الموضع ـ خير كثير » فبينما نحن كذلك ، إذ دخل علينا رجل ، فنظر فى وجوهنا فاستثبتها ؛ فلما عرفته انصرف ، وعلمت أن الأمين مقتول.

(٥) الساعة الرهيبة

عند منتصف الليل

قال :

فلما انتصف الليل ـ أو قارب ـ فتح الباب ، ودخل الدار قوم من العجم معهم السيوف مسلولة (١) ، فلما رآها قام قائماً ، وجعل يقول :

« إنا لله ، وإنا إليه راجعون !

ذهبت والله نفسى فى سبيل الله

أما من حيلة ؟ امامن مغيث؟ أما من أحد من الابناء ؟»

٭٭٭

وجاءوا حتى وقفوا على باب البيت الذى نحن فيه ، وجعل بعضهم يقول البعض

---

(١) وفى رواية أخرى — :

«وبينما نحن كذلك اذا هدة تكاد الارض ترجف فيها واذا اصحاب طاهر قد دخلوا الدار وأرادوا البيت ـ وكان فى الباب ضيق ـ فدافعهم محمد بمجنة كانت معه فى البيت فما وصلوا اليه حتى عرقبوه ثم هجموا عليه فحزوا رأسه»

« تقدم » ويدفع بعضهم بعضاً (١) وقام الامين ، فأخذ بيده وسادة وجعل يقول :

« ويحكم ، أنا ابن عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم »
أنا ابن هرون ، أنا أخو المأمون ، الله الله فى دمى . »

٦ — دفاع اليائس

فدخل عليه رجل منهم ، فضربه بالسيف ضربة ، وقعت فى مقدم رأسه ، وضربه الامين بالوسادة على وجهه ، وأراد أن يأخذ السيف منه . فصاح . « قتلنى ! ، قتلنى ! »

***

٧ — كيف صرع الأمين

وهنا دخل منهم جماعة .

فنخسه واحد منهم بالسيف فى خاصرته .

وركبوه ؛ فذبحوه من قفاه .

وأخذوا رأسه ؛ ومضوا به الى طاهر ، وتركوا جثته !

فلما كان السحر ، أخذوا جثته فأدرجوها فى جل ،وحملوها

---

(١) قال الراوى — :
فقمت فصرت خلف الحصر المدرجة فى زاوية البيت خيفة القتل و لما كان وقت السحر جاؤا إلى جثته فأدرجوها فى جل وحملوها

فنصب طاهر الرأس على برج ، و خرج أهل بغداد للنظر ؛ و طاهر يقول : « هذا رأس المخلوع محمد (١) »

---

(١) وكان مصرع الامين ليلة السبت لست بقين من المحرم سنة ١٩٨ ه وعمره سبعة وعشرون عاما بعد أن حكم أربع سنين و ثمانية أشهر

ومن أروع ما قرأناه فى رثائه قول أبى نواس — :

طوى الموت مابينى و بين محمد ⠀⠀ وليس لما تطوى المنية ناشر
فلا وصل الا عبرة تستديمها ⠀⠀ أحاديث نفسى مالها الدهر ذاكر
لئن عمرت دور بمن لا أوده ⠀⠀ لقد عمرت ممن أحب المقابر
وكنت عليه أحذر الموت وحده ⠀⠀ فلم يبق لى شىء عليه أحاذر

ومن أشنع ما قرأناه فى الشماتة به ـ وهو كثير ـ قول أحد البغداديين :

يا نا كثا أسلمه نكثه ⠀⠀ عيوبه ـ من خبثه ـ باديه
قد جاءك الليث بشداته ⠀⠀ مستكليا فى أسد ضاريه
فاهرب ـ ولا مهرب من مثله ـ ⠀⠀ إلا الى النار أو الهاويه

الاسباب التى أدت الى مصرعه

أما الأسباب التى ادت الى هذه الخاتمة المروعة فهى كثيرة تضيق هذه الالمامة السريعة عن استيعابها غير أننا نذكر منها الاسباب التالية — :

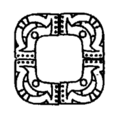
(١) نكث الأمين وغدره باخيه المأمون

(٢) حقد الفضل بن الربيع على المأمون والحافه فى اغراء الأمين بنقض بيعته

(٣) اهمال على بن عيسى وغروره بنفسه

(٤) يقظة طاهر وبعد همته

أضف الى ذلك عناية المأمون بتخيره قواده وأصحاب الرأى والى تحمس الفرس وتعصبهم للمأمون وماأبداه انصاره منهم من الاستماتة فى نصرته . في حين كان الأمين مخلدا بثقته الى جماعة من المتملقين وقصار النظر وأصحاب الخلاعة والمجون .



(٢) غدر الامين

« أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تكون أول الخلفاء نكث عهده و نقض ميثاقه و استخف بيمينه و رد رأى الخليفة قبله »

« يا أمير المؤمنين ، لم ينصحك من كذبك و لم يغشك من صدقك .

لا تجرئ القواد على الخلع فيخلعوك و لا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك و بيعتك ، فان الغادر مخذول ، و الناكث مفلول .

« عبد الله بن خازم (١) »

و لكن الأمين أبى إلا أن يصم أذنيه عن نصيحة الناصحين ، و تملكه الطمع فى ملك أخيه ، و الاستسلام الى الفضل بن الربيع . فبدأ بالغدر بأخيه القاسم فعزله ثم تطلع الى عزل المأمون بعده

ولقد استشار القواد ـ واحدا بعد الآخر ـ فحذروه سوء العاقبة ، و لكنه أصر على انفاذ خطته الخاطئة التى أوردته موارد الحتف و كانت خير مثل يلقاه الباغى المعتدي .

---

(١) ومن غرائب الامور أن الأمين أغراه بعد ذلك بالمال حتى وافقه على غدره والنكث بعهده :

٢ – الفضل بن الربيع

وعلم أن الخلافة - إن أفضت الى المأمون يوما وهو حي - لم يبق عليه وكان فى ظفره عطبه «المؤرخون»

وهكذا لم يترك الفضل بن الربيع وسيلة من وسائل الاغراء الا سلكها حتى أقنع الامين بوجوب الاغارة على ما في يد أخيه من ملك وعزله والدعاء لابنه بدله. كما يقولون

فقد فكر الفضل بن الربيع - بعد مقدمه من العراق على محمد - أن ينكث بالعهود التى أخذها عليه الرشيد لابنه المأمون

قالوا : —

وعلم أن الخلافة ان أفضت إلى المأمون يوماً - وهو حي - لم يبق عليه وكان فى ظفره به عطبه

فسعى فى إغراء محمد به وحثه على خلعه وصرف ولاية العهد به من بعده إلى ابنه موسى ؛ ولم يكن ذلك من رأي محمد ولا عزمه بل كان عزمه الوفاء لأخويه عبد الله والقاسم

قالوا :

فلم يزل الفضل يصغر - فى عينيه - شأن المأمون ويزين له خلعه .

* * *

وهكذا بدأ الأمين أخويه بالغدر

فعزل أخاه القاسم عما وليه من الأعمال وأقدمه إلى بغداد
وكتب إلى عماله بالدعاء لابنه موسى

فعلم المأمون أن أخاه يدبر فى خلعه ، فقطع البريد عنه
وانضم قوم إلى المأمون فأكرم وفادتهم وأعد عدته لمناضلة
أخيه ؛ وبث العيون والأرصاد وعرف كيف يحصن مواقعه
ويحتاط للطوارئ (١)

***

وقد قال أحد شعراء بغداد قصيدة يندد فيها بالأمين ويذكر
فيها تشاغله فيه بلهوه وبطانته وركونه الى الفضل بن الربيع

أضاع الخلافة غش الوزير وفسق الامام وجهل المشير
ففضل وزير وبكر مشير يريدان مافيه حتف الامير

لى آخر هذه القصيدة التى لانسمح لأنفسنا باثباتها فى هذا المقام
لما فيها من شناعة التعبير (٢)

(٣) على بن عيسى

أما « على بن عيسى » فقد عرف كيف يفسر لنا قول صالح
ابن عبد القدوس

---

(١) قالوا :
« ونهى الفضل بن الربيع عن ذكر المأمون والقاسم والدعاء لهما
على شىء من المنابر »

(٢) انظر ص ١٤٣ من تاريخ الطبرى (جـ ١٠)

ما يبلغ الاعداء من جاهل   مايبلغ الجاهل من نفسه

فقد كان الظفر له محققا – لولا استسلامه للغرور والحمق وإستهانته بأمر طاهر ، ولم يكن يرتاب أحد فى انتصاره ، ولكن للقدر تصاريف عجيبة .

ألا ترى الى « أم جعفر » تعتقد أن أمر المأمون قد انتهى وتتمثل هزيمته كأنها أمر واقع لاسبيل الى تلافيه ، فتشفق من مصيره ، وتوصى «على بن عيسى» الذى عقد له الأمين على خمسين ألف فارس وراجل من أهل بغداد لمحاربة المأمون فتقول له :

«ياعلى .

إن أمير المؤمنين – وان كان ولدي – اليه تناهت شفقتى وعليه تكامل حذرى فانى على عبدالله منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى

وإنما ابنى ملك نافس أخاه فى سلطان»

ثم تقول :

فاعرف لعبد الله حق والده واخوته ولا تجبهه بالكلام – فانك لست نظيرهـ ولا تقتسره اقتسار العبيد ، ولا توهنه بقيد ولا غل .

ولا تمنع منه جارية ولا خادم

ولا تعنف عليه فى السير ولا تساوه فى المسير

ولا تركب قبله ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه

وإن شتمك فاحتمل منه ، وان سفه عليك فلا تراده »

قالوا : ثم دفعت اليه قيداً من فضة وقالت:

«إن صار فى يدك فقيده بهذا القيد» فقال لها:«سأقبل أمرك وأعمل فى ذلك بطاعتك»

وهكذا يذهب صاحبنا وهو يحسب أنه قد أسر طاهرا أو كاد ويبدي من صنوف الغرور مالا قبل لانسان بوصفه .

فقد كان يقال له :

« إن طاهرا مقيم بالري يعرض أصحابه ويرم آلته » فيضحك ثم يقول :

« وما طاهر ؟ فوالله ماهو إلا شوكة من أغصانى » أو شرارة من ناري ، وما مثل طاهر يتولى على الجيوش ويلق الحروب ؟»

ثم يلتفت إلى أصحابه قائلا - :

«والله ما بينكم وبين أن ينقصف انقصاف الشجر من الريح العاصف الا أن يبلغه عبورنا « عقبة همذان » ، فان السخال لاتقوى على النطاح، والثعالب لاصبر لها على لقاء الأسد ، فان يقم طاهر بموضعه يكن أول معرض لظباة السيوف وأعنة الرماح »

***

فاذا وصل « على بن عيسى » الى عقبة همذان » استقبل قافلة قدمت من « خراسان » فسألهم عن الخبر فقالوا له - :

« إن طاهرا مقيم بالري وقد استعد للقتال واتخذ آلة الحرب، وإن المدد يترى عليه من خراسان وما يليها من الكور، وإنه فى كل يوم يعظم أمره ويكثر أصحابه وانهم يرون أنه صاحب جيش خراسان »

فلا يكاد يسمع منهم ذلك حتى يهزأ بأقوالهم ويبدى لهم كل ما يستطيع أن يبديه من صنوف الاحتقار لطاهر وقوته، وإذا بلغ الرى وقال له صاحب مقدمته :

« لو كنت أذكيت العيون وبعثت الطلائع، وارتدت موضعا تعسكر فيه وتتخذ خندقا لأصحابك يأمنون به كان ذلك أبلغ فى الرأى وآنس للجند »

أجابه صاحبنا هازئا ـ :

« ليس مثل طاهر يستعد له بالمكايد والتحفظ. إن حال طاهر تؤول الى أحد أمرين :

إما أن يتحصن بالري فيبيته أهلها فيكفونا مؤنته، أو يخليها ويدبر راجعا لو قربت خيولنا وعساكرنا منه وأتاه يحيى بن على »

ويقول له صاحب مقدمته ـ :

« اجمع متفرق العسكر واحذر على جندك البيات، ولا تسرح الخيل إلا ومعها كنف من القوم، فان العساكر لا تساس بالتوانى، والحروب لا تدبر بالاغترار، والثقة أن تحترز، ولا تقل : « المحارب

لى طاهر» فالشرارة الخفية ربما صارت ضراما، والثلمة من السيل ـ ربما اغتر بها وتهون ـ فصارت بحرا عظيما .

وقد قربت عساكرنا من طاهر ، فلوكان رأيه فى الحرب لم يتاخر الى يومه هذا »

فيجيبه صاحبنا على هذه النصيحة الثمينة المملوءة حكمة وتعقلا واخلاصا ، بقولة الطائش المغرور ـ :

« اسكت فان طاهرا ليس فى هذا الموضع الذى ترى ، وإنما تتحفظ الرجال إذا لقيت أقرانها ، وتستعد إذا كان المناويء لها أكفاءها ونظراءها . »

* * *

وهكذا يمعن صاحبنا فى غروره وصلفه واعتداده بنفسه بينما عدوه« طاهر » لا يترك وسيلة من وسائل الحيطة و إحكام الدفاع وترتيب الخطط الا سلكها ، و يأبى القدر إلا أن يعيد لنا حكاية الأرنب والسلحفاة الشهيرة حين تراهنا على السباق الى غاية وأهمل الأرنب اعتمادا على قوته وجدت السلحفاة لتعوض من ضعفها ففازت عليه و سبقته (١) .

---

(١) قالوا :

« وصبر الفريقان جميعاً ، وعلت ميمنة « على » على ميسرة « طاهر » ففضتها فضاً منكراً

وميسرته على ميمنته فأزالتها عن موضعها »

وقد كان من نتائج هذه المعركة أن قوي بأس المامون وعز مركزه وتكاثرت عليه وفود المهنئين

وقد أعلن فى ذلك اليوم خلع أخيه ودعا لنفسه بالخلافة فى جميع كور خراسان وما يليها

وأرجف الناس ببغداد وضعف مركز الأمين ، وندم أشد الندم على محاربة أخيه وما بدأه به من الغدر

وعرف قواد الأمين أنه شديد الحاجة الى اصطناع الرجال فاتفقوا مع الجند على احداث الشغب ليصطنعهم بالمال ،

ولا يكاد الجند يشتبكون مع جنود القصر حتى يكفهم

وهنا قال طاهر لأصحابه

اجعلوا بأسكم على كراديس القلب فانكم لو فضضتم منها راية واحدة رجعت أوائلها على أواخرها ،

قالوا :

« فصبر أصحابه صبراً صادقاً ، ثم حملوا على أولى رايات القلب فهزموهم وأكثروا فيهم القتل ، ورجعت الرايات — بعضها على بعض — وانتقضت ميمنة على »

ورأى أصحاب ميمنة طاهر وميسرته ما عمل أصحابه فرجعوا على من كان فى وجوههم فهزموهم ، وانتهت الهزيمة إلى « على » فجعل ينادى أصحابه ، ورماه رجل من أصحاب طاهر بسهم فقتله ووضعوا السيف فيهم حتى هزموهم »

الأمين ويأمرلهم بما طلبوه من الأرزاق ويصل قوادهم وخواصهم بما يشتهون .

فتكون هذه فاتحة الثورات الجديدة التي جلبتها هذه الهزيمة الشنعاء

(٤) شجاعة طاهر

أما شجاعة طاهر فقد كانت تتمثل فى كل مواقفه المشرفة التى تجلت فى هذه الحروب الطاحنة، فقد كان يشرف على كل شأن - جل أو حقر - من شؤون جيشه ، ويتعرف كيف يستميل اليه جنوده ويغرى جنود الاعداء بالانضمام اليه

وكان طاهر لا تلوح له فرصة إلا أسرع الى انتهازها ، وقد رأيت ما أبداه من صنوف الحزم فى حربه مع « على بن عيسى » وليست هذه العجالة بموفية شيئا من مواهبه وميزاته الباهرة .



نكبة بغداد

ولا يسعنا أن نختم هذه الكلمة دون أن نشير الى نكبة بغداد -التى اقترنت بمصرع الأمين- فقد لقي أهلها من صنوف العذاب مالا قبل لانسان باحتماله ، ونحن ندع الوصف الى شعرائها الذين شهدوا ماحل بها ورأوا بأعينهم ماأصاب أهلها من الروع والفزع .

فمن ذلك قول بعض فتيان بغداد - :

بكيت دما على بغداد ، لما فقدت غضارة العيش الأنيق
تبدلنا هموما من سرور ، ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتها - من الحساد - عين فافنت أهلها بالمنجنيق
فقوم أحرقوا بالنار قسرا ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادى « واصباحا » وباكية لفقدان الشقيق
وحوراء المدامع ذات دل مضمخة المجاسد بالخلوق
تفر من الحريق إلى انتهاب ووالدها يفر إلى الحريق
ينادين: « الشفيق» -ولاشفيق- وقد فقد الشفيق من الشفيق
وقوم أخرجوا من ظل دنيا متاعهم يباع بكل سوق
ومغترب قريب الدار ملقى -بلا رأس- بقارعة الطريق
توسط من قتالهم جميعا فما يدرون من أى الفريق

فلا ولد يقيم على أبيه | وقد هرب الصديق بلا صديق

ومن ذلك قول « العتري »

من ذا أصابك يا بغداد بالعين | ألم تكونى ـ زمانا ـ قرة العين؟
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم | وكان قربهم زينا من الزين؟
صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا | ماذا لقيت بهم من لوعة البين؟
أستودع الله قوما ماذكرتهم | الا تحدر ماء العين من عينى
كانوا ، ففرقهم دهر وصدعهم، | والدهر يصدع ما بين الفريقين

وقال آخر (١) في وصف وقعة (٢)

وقعة يوم الأحد | صارت حديث الأبد
كم جسد أبصرته | ملقى ، وكم من جسد
وناظر كانت له | منيـة بالرصد
أتاه سهم عائر | فشك جوف الكبد
وصائح « يا والدي » | وصائح : « ياولدي »
وكم غريق سابح | كان متين الجلد
لم يفتقده أحد | غير بنات البلد
وكم فقيد بئس | عز على المفتقد

الى أن قال

لم يبق من كهل لهم | فات ، ولا من أمرد
و « طاهر » ملتهم | مثل التهام الأسد

---

(١) هو عمرو بن عبد الملك (٢) وقعة بالكناسة باشرها طاهر بنفسه

خيم لا يبرح فى الـ عرصـة مثل اللبد
تقذف عيناه ـ لدي الـ حرب ـ بنار الوقد

***

فقائل : « قد قتلوا ألفا ، ولما يزد »
وقائل : « أكثر ، بل مالهم من عدد »
وهـــارب نحوهم يرهب من خوف غد

ثم قال بعد أبيات

قلت لمطعون ـ وفيـ ـه روحـــه لم تؤد :
« من أنت يا ويلك يا مسكين من محمد ؟ »
فقال : « لا من نسب دان ، ولا من بلد »
لم أره قـــط ولم أجد له من صفـد »
وقال : « لا للغى قا تلت ، ولا للرشـد
إلا لشئ عاجـل يصير منه فى يدى »

***

ولعل أبدع وأحفل قصيدة قرأناها فى وصف هـذه النكبة المروعة التى حلت ببغداد هى قصيدة « الخزيمى » التى نختم بها هذا الفصل وهى ـ على طولها ـ آية من آيات البلاغة وصدق الشاعرية ودقة الوصف ، ونحن نختار منها ما يلى :

جنة دنيـا ، ودار مغبطة قل من النائبات واترها
درت خلوف الدنيا لساكنها وقـل معسورها وعاسرهـا

فانفرجت بالنعيم وانتجعت فيها بلذاتها حواضرها
فالقوم منها فى روضة أنف أشرق ـ غب القطان ـ زاهرها
من غره العيش فى بلهنية لو أن دنيا يدوم عامرها

***

دار ملوك رست قواعدها فيها ، وقرت بها منابرها
أهل العلى والثرى وأندية الفخـ ـر ، اذا عددت مفاخرها
أفراخ نعمى فى إرث مملكة شد عراها لها أكابرها
فلم يزل ـ والزمان ذو غير ـ يقدح فى ملكها أصاغرها
حتى تساقت كأسا مثملة من فتنة ، لا يقال عاثرها
وافترقت ـ بعد ألفة ـ شيعا مقطوعة بينها أواصرها
ياهل رأيت الأملاك ماصنعت إذ لم يزعها بالنصح زاجرها
أو رد أملا كنا نفوسهم هوة غى أعيت مصادرها
ماضرها لو وفت بموثقها واستحكمت ـ فى التقى ـ بصائرها
ولم تسافك دماء شيعتها وتبتعل فتنة تكابرها
وأقنعتها الدنيا التى جمعت لها ورغب النفوس ضائرها

إلى أن يقول ـ :

ياهل رأيت الجنان زاهرة يروق عين البصير زاهرها ؟
وهل رأيت القصور شارعة تكن مثل الدمى مقاصرها ؟
وهل رأيت القرى التى غرس الأمـ ـلاك مخضرة دساكرها ؟

فانها أصبحت خلايا من الانـ   سان ، قد ميت محاجرها
ففرا خلاً تعوى الكلاب بها   ينكر منها الرسوم داثرها
وأصبح البؤس مايفارقها   إلفا لها والسرور هاجرها

ثم يقول بعد أبيات ـ :

فأين حراسها وحارسها ؟   وأين مجبورها وجابرها ؟
وأين خصيانها وحشوتها ؟   وأين سكانها وعامرها ؟
أين الجرادية الصقالبوالأحـ   ـبش تعدو هدلا مشافرها
ينصدع الجند عن مواكبها   تعدو بها سربا ضوامرها
بالسند والهند والصقالب والنو   بة ، شيبت بها برابرها
طيرا أبابيل أرسلت عبثا   يقدم سودانها أحامرها ؟

***

أين الظباء الأبكار فى روضة الملـ   ـك تهادى بها غرائرها
أين غضاراتها ولذتها ؟   وأين محبورها وحابرها ؟
المسك والعنبر اليمانى والاذ   جوج مشبوبة مجامرها ؟
يرفلن فى الخز والمجاسد والمو   شى مخطومة مزامرها
فأين رقاصها وزامرها   يجبن حيث انتهت حناجرها
تكاد أسماعهم تسل إذا عا   رض عيدانها مزامرها ؟
أمست «كجوف الحمار» خالية   يسعرها بالجحيم ساعرها
كأنما أصبحت بساحتهم   عاد ؛ ومستهم صراصرها ؟

لاتعلم النفس مايباينها من حادث الدهر أو يباكرها

الى أن يقول ـ :

يابؤس بغداد دار مملكة دارت على أهلها دوائرها

أمهلها الدهر ، ثم عاقبها لما أحاطت بها كبائرها

بالخسف والقذف والحريق وبالحر * ب التى أصبحت تساورها

حلت ببغداد ـ وهى آمنة ـ داهية لم تكن تحاذرها

طالعها السوء من مطالعه وأدركت أهلها جرائرها

رق بها الدين واستخف بذي الفض * ل وعز النساك فاجرها

وخطم العبد أنف سيده بالرغم واستعبدت مخادرها

وصار رب الجيران فاسقهم وابتز أمر الدروب ذاعرها

من ير بغداد ـ والجنود بها قد ربقت حولها عساكرها

ثم يقول بعد أبيات ـ :

يحرقها ذا ، وذاك يهدمها ويشتفى بالنهاب شاطرها

والكرخ أسواقها معطلة يستن عيارها وعائرها

أخرجت الحرب من سواقطها آساد غيل غلبا تساورها

***

لاالرزق تبغي ولا العطاء، ولا يحشرها للقاء حاشرها

ثم يقول بعد أبيات ـ :

والنهب تعدو به الرجال ،وقد أبدت خلاخيلها حرائرها

معصوصبات وسط الأزقة ،قد أبرزها للعيون ساترها
كل رقود الضحى مخبأة لم تبد فى أهلها محاجرها
بيضة خدر مكنونة برزت للناس منشورة غدائرها
تعثر فى ثوبها ، وتعجلها كبة خيل زيعت حوافرها
تسأل: «أين الطريق؟» والهة والنار من خلفها تبادرها
لم تجتل الشمس حسن بهجتها حتى اجتلتها حرب تباشرها

***

ياهل رأيت الثكلى مولولة فى الطرق تسعى،والجهد باهرها؟
فى إثر نعش عليه واحدها فى صدره طعنة يساورها
تنظر فى وجهه، وتهتف بالثكـ ـل ، وعز الدموع خامرها
غرغر بالنفس ، ثم أسلمها مطلولة ، لا يخاف ثائرها

***

وهل رأيت الفتيان فى عرصة المعـ ـرك معفورة مناخرها؟
كل فتى مانع حقيقته تشقى به فى الوغى مساعرها
باتت عليه الكلاب تنهشه مخضوبة من دم أظافرها
أما رأيت الخيول جائلة بالقوم منكوبة دوائرها
تعثر بالأوجه الحسان من القتـ ـلى ، وغلت دما اشاعرها
يطأن أكباد فتية نجد تفلق هاماتهم حوافرها

***

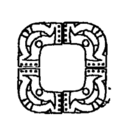
أما رأيت النساء تحت المجانيـ ـق تعادى شعثا ضفا ئرها

يحملن قوتا من الطحين على الأكتاف معصوبة معاجرها
وذات عيشى ضنك ومقعسة تشدخيها صخرة تعاورها
تسأل عن أهلها ، وقد سلبت وابتز عن رأسها غفائرها

الى أن يقول

هل ترجعن أرضنا كما غنيت وقد تناهت بنا مصائرها

وهكذا الى آخر هذه القصيدة الرائعة .



مصرع المتوكل (١)

« ولم يكن أمير المؤمنين في يوم من الايام
أسر منه في ذلك اليوم ، أخذ مجلسه ، ودعا
بالندماء والمغنين وأخذ في الشراب واللهو ،
ولهج يقول :
« أنا والله مفارقكم عن قليل ! »
« الطبرى »

لا أذكر مصرع المتوكل دون أن أتمثل معه سوء التصرف ،

(١) كان المتوكل أسمر ، نحيفا ، حسن العينين ، خفيف العارضين ، هذه هي صورته التي تركها لنا التاريخ

وقد ولى الخلافة وهو في السادسة والعشرين من عمره سنة ٢٣٢ ومات وهو ابن أربعين عاماً ، فهو قد مكث في الخلافة نحو أربعة عشر عاما وعشرة أشهر

ومما يجدر ذكره هنا أنه عقد البيعة لبنيه الثلاثة بعد ثلاثة أعوام من ولايته فولى:

(١) المنتصر ـ العراق والحجاز واليمن
(٢) المعتز ـ خراسان والرى
(٣) المؤيد ـ الشام

ومن أظهر مافعله ، أنه أمر بهدم قبر الحسين بن على ، وامر أن يبذر ويسقى موضعه ومنع الناس من اتيانه

والاسراف فى الحذر وسوء الظن وما جناه ذلك عليه من البوار والتلف

لقد جنى المتوكل على نفسه ، وأمعن فى الاساءة إلى ابنه المنتصر ، ولم يدع فرصة للزراية عليه والتهكم به إلا انتهزها !

لقد أحس قلبه أن مصرعه سيكون على يد ابنه وفلذة كبده ، ونما فيه هذا الاحساس حتى أصبح يقيناً

وللنفس أحوال تظل كأنما تشاهد فيها كل غيب سيشهد

وثم أصبح لا يطيق رؤية هذا الولد العاق الذى لا يراه إلا تمثل فيه شبح الجلاد !

وهكذا صدق المثل القائل : ان من خشى العفريت ، لم يلبث أن يراه .

شعر المتوكل أن ابنه المنتصر هو قاتله ، ومثل اسمه في ذهنه « المنتظر » فأصبح لا يناديه بغير هذا اللقب ، وكثيراً ما قرعه وأهانه وسلط عليه من يؤذيه ويصفعه من أتباعه ، وربما صارحه بما يجنه لهذا الابن من الاحتقار والمقت ، وربما قال له إنه لا يطيق أن يرى أمامه قاتلا يتربص الفتك به ، وما أكثر ما استفزه وأمعن فى ايلامه امعاناً .

قالوا :

وكان يقول له :

« أنت تتمنى موتى وتنتظر وقتي !

ثم يأمر الندمان أن يعبثوا به

أسباب الخلاف والـكره

قال ابن خلدون :

١) كان المتوكل قد عهد إلى ابنه المنتصر ، ثم ندم وأبغضه ، لما كان يتوهم منه منه استعجاله الأمر لنفسه

وكان يسميه « المنتظر » «والمستعجل» لذلك

٢) وكان المنتصر ينكر عليه انحرافه عن سنن سلفه فيما ذهبوا اليه من مذهب الاعتزال والتشيع لعلى ! وربما كان الندمان فى مجلسه يفيضون فى ثلب على ! فينـكر المنتصر ذلك ويتهددهم، ويقول للمتوكل :

«ان علياً هو كبيريتنا، وشيخ بنى هاشم ، فان كنت لابد ثالبه، فتول ذلك بنفسك ، ولا تجعل لهؤلاء سبيلا إلى ذلك !»

٣) فيستخف به ويشتمه ، ويأمر وزيره (عبيد الله) بصفعه ، ويتهدده بالقتل ، ويصرح بخلعه

٤) قالوا :

وربما استخلف غيره فى الصلاة والخطبة مراراً ، وتركه ! فطوى من ذلك على النـكث

نتائج الحقد

وكأنما كان يوحى اليه ـ بمثل هذه الأعمال ـ أن يحقق هذه النبوءة المروعة ، ويرسم له ـ بما يأتيه من تلك الحماقات المتوالية ـ

خطة ممهدة واضحة السبل للفتك به، بعد أن أثبت فى روعه أن حينه لن يكون إلا على يديه. وقد أفلح المتوكل فى ذلك، وانتهى به الأمر إلى ايغار صدره، واثارته لمناوأته والفتك به

الليلة الاخيرة

جاءت ليلة الاربعاء (٣ شوال سنة ٢٤٧ ﻫ) وكان المتوكل يشرب مع الفتح (١) فى قصره المعروف بالجعفرى، ومعه جماعة من الندماء والمغنين

قالوا:

ولم يكن أمير المؤمنين فى يوم من الأيام أسر منه فى ذلك اليوم:
وقد أخذ مجلسه (٢)، ودعا بالندماء والمغنين، وأخذ فى الشراب واللهو ولهج يقول: «أنا والله مفارقكم عن قليل»

كيف صرع

بعد العتمة بساعة

أغلقت الأبواب كلها، الا باب الماء – الذي دخل منه القتلة – وكان المتوكل حينئذ ثملا!

وجاء غلام تركى اسمه «باغر» فضرب المتوكل ضربة، قطع بها حبل عاتقه!

---

(١) هو الفتح بن خاقان (٢) كان المتوكل اذ ذاك فى سر من رأى

وفاء صديقين

وليس يسعنا أن نمر بهذا المصرع ، دون أن يطيف بخاطرنا ثلاثة أمور . اخلاص الفتح بن خاقان في هذه الساعة الحرجة ، ووفاء البحترى له وفاء أذهله عن كل احتياط ، وكاد يكون سببا في اهلاكه وعقوق ابنه المنتصر ، الذى اشترك فى قتل ابيه ».
فأما الفتح بن خاقان ، فانه أسرع الى سيده حين رآه مضرجا بدمائه ».
ورمى بنفسه عليه ، وقال : ويلكم تقتلون أمير المؤمنين ؟ ».
فبعجوه بسيوفهم فقتلوه !
وأما البحترى ، فرثاه بقصيدته الخالدة التى نعدها من أروع ما قرأناه فى الرثاء ، ونرى فيها مثلا من أعلى أمثلة الاخلاص والوفاء وقد ختمنا بها هذا الفصل ، وأما المنتصر ، فان مدته فى الخلافة لم تطل . ولم تزد على ستة أشهر
قالوا :
وهى مدة شيرويه بن كسرى بعد أن قتل أباه ! »

قصيدة البحتري

والى القارىء قصيدة البحتري الفذة ، التى صرح فيها — كما يقول الثعالبي — تصريح من أذهلته المصائب عن تخوف العواقب :.
قال :

تغير حسن الجعفرى وأنسه ، وقوض بادى الجعفرى وحاضره

تحمل عنه سا سنوه لجـاءة ··· فآضت سواء دوره ومقابره

ولم أر مثل القصر ـ إذ ريع سربه، ··· وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره

وإذ صيح فيه بالرحيل، فهتكت ··· ـ على عجل ـ أستاره وستائره

اذا نحن زرناه، أجدلنا الاسى ··· وقد كان قبل اليوم يبهج زائره

فأين عميد الناس فى كل نوبة ··· تنوب، وناهى الدهر فينا وآمره؟

تخفى له مغتاله ـ تحت غرة ـ ··· وأولى لمن يغتاله، لو يجاهره

صريع تقاضاه السيوف حشاشة ··· يجود بها، والموت حمر أظافره

***

حرام على الراح ـ بعدك ـ أو أرى ··· دما بدم يجرى على الارض مائره

وهل يرتجى أن يطلب الدم طالب ··· مدى الدهر ـ والموتور بالدم واتره

فلا ملى الباقي تراث الذى مضى ··· ولا حملت ذاك الدعاء منابره!



مصرع المعتز (١)

« ثم أدخلوه سردابا وجصصوه عليه فمات »

« المؤرخون »

سبب مصرعه

قالوا — :

« ان الاتراك طلبوا منه أرزاقهم فلم يكن عنده مال يعطيهم، فأرسل الى أمه يسألها مالا ، فقالت له — : «ماعندى شئ »

قالوا — :

---

(١) هو ابن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن الرشيد ، وكنيته أبو عبد الله

وكان أبيض أسود الشعر ، وقد ولد بسر من رأى سنة ٢٣٢ ه . مكثت خلافته أربع سنين وسبعة اشهر الا سبعة أيام وكان عمره أربعا وعشرين سنة وثلاثة وعشرين يوما . وكان اسم أمه « قبيحة »

قالوا : وكان قد سماها المتوكل ذلك لحسنها وجمالها كما يسمى الاسود كافور ،قالوا:

وكان لها أموال عظيمة ببغداد ، وكان لها مطمور تحت الارض نحو الف الف دينار

ووجد لها فى سفط قدر مكوك زمرد ، وفى سفط آخر مقدار مكوك لؤلؤ ، وفى سفط بلحة ياقوت لا يوجد مثله ونبش ذلك كله !

فاتفق الأتراك والمغاربة والفراعنة على خلع المعتز، فساروا الى بابه فقالوا :-

« اخرج الينا »

فقال - :

« قد شربت أمس دواء، وقد أفرطت فى العمل. فان كان لابد من الاجتماع فليدخل بعضكم الى »

كيف صرع

فدخل اليه جماعة منهم فجروه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأقاموه فى الشمس »

فكان - كما يقول المؤرخون - يرفع رجلا ويطوى اخرى لشدة الحر وكان بعضهم يلطمه - وهو يتقى بيده، وأدخلوه حجرة وأحضروا القاضى (١) وجماعة فأشهدوهم على خلعه .

ثم سلموا المعتز الى من يعذبه، ومنعوه الطعام والشراب ثلاثة أيام ثم أدخلوه سردابا وجصصوه عليه فمات، ودفنوه بسامرا مع المنتصر

---

(١) وكان اسم القاضى « أبا الشوارب »

نخبة من

آراء الصحف والكتاب
فى «مختار القصص»

« ليس فى وسعنا أن نثبت هنا كل ماتفضل به حضرات الكتاب من الكلمات الطيبة التى قابلوا بها ظهور هذا الكتاب فان ذلك يستغرق ـ اذا جمع ـ كتابا أكبر من ضعف حجم هذا الكتاب ، فلنقتصر على نبذ منها نثبتها شاكرين لأصحابها فضلهم وتفضلهم »

رأى صحيفة الاهرام

الاستاذ «كامل كيلانى» أديب أديب ممتاز ـ مع حداثة سنه ونحافة جسمه ـ برسوخ القدم فى الآداب العربية ويكاد يكون حجة فى أشعار المتنبى وابى العلاء المعرى وابن الرومى وله مؤلفات قيمة مثل «رسالة الغفران» و «نظرات فى تاريخ الادب الاندلسى» وغيرهما على أنه لم يقصر مجهوده على آداب أئمة اللغة وشعرائها بل عنى بالثقافة العصرية وأخذ يقطف من تآليف الغربيين أجودها وينقل منها الى العربية بأسلوب رشيق سلس يزيد مايترجمه رقة وطلاوة . فما كدنا ننتهى من اطراء كتابه «قصص للاطفال» حتى أتحفنا بكتاب «مختار القصص» وهو كتاب طريف يقع فى أكثر

من مائتى صفحة متقن الطبع فخم لورق والتجليد عنى بنشره محمد افندى محمود صاحب مكتبة الوفد . ويشتمل هذا الكتاب على طائفة من القصص المختارة الشائقة فنحض محبى الاقاصيص على مطالعته والاقبال عليه لما حواه من الادب الجم والعظات والعبر

رأى صحيفة المقطم

الأستاذ كامل افندى كيلانى من أنشط الشباب وأكثرهم بحثا وتحقيقا ودراسة وكتابة، يتحف القراء من وقت لآخر بمعلومات رائعة فى الأدب العربى ويسهل عليهم دراسة الآداب العربية القديمة بتهذيب المؤلفات وتنسيقها كما رأينا فى رسالة الغفران وديوان ابن الرومى وغيرهما من المؤلفات الأدبية

ولقد عنى حضرته أخيراً بكتب القصص لما يعلقه على القصة من الأمل بالذيوع وبواسطتها يبث المبادىء والافكار والآراء التى يود نشرها فأخرج كتاب (قصص للأطفال) من ألف ليلة وليله وأتحف القراء أخيرا بكتابه «مختار القصص» ضمنه قصصا ما بين عربية وافرنجية وتمثيلية وقصصية، ولقد سبق أن نشر حضرته هذه القصص فى المجلات والصحف فحازت اعجاب جمهور من القراء وطلبوا منه أن يطبعها فى كتاب يسهل تداوله فلبى طلبهم وعنيت مكتبة الوفد بنشر الكتاب على ورق جيد وقد ازدانت القصص بصور تمثل الحوادث وتزيد فى شوق القراء الى القراءة والاستفادة....

رأى صحيفة السياسة

.. وفيه نخبة طيبة من أحسن ما كتب الكاتب الايطالى المشهور «بوكاتشو» وبعض أقاصيص مصرية تصور حياتنا أجمل تصوير وتعبر عن روحنا أحسن تعبير

والكتاب محلى بصور لطيفة لأبطال القصص وهم فى مواقف مختلفة...

رأى صحيفة الكشكول

الأستاذ كامل الكيلانى ناضج الادب حى الذكاء نشيط الذوق، وهو بعد ذلك شاب يعطيك اجتهاده وتوفره على القراءة والكتابة ما لا تعطيك فسحة الأمل فيمن وقفوا على أبواب الشيخوخة، ولعلك لا تنسى أن الثمرة الشهية في الشجرة الفتية، وأن الزهر اليانع على الفن اليافع، وقد أتاح لقراء الأدب فرصة مشكورة حين أخرج كتابه «مختار القصص» فاذا أنت منه فى حكمة وأدب، واذا هو يمدك اليهما سببا بعد سبب، ثم اذا أنت تجمعها رأسا الى ذنب، وليس بعد ذلك مطمع لطامع ولا رجاء لذى حاجة

وفى صدر الكتاب أبيات من الشعر الرقيق أرسلها الاستاذ الدكتور أبو شادي وصفا لمختار القصص، فحسبنا اليوم أن نهتف بها فى أذن الاستاذ الكيلانى غير متعمدين أن نخجل تواضعه :-

إن الحياة - اذا اعتبرت - رواية فاستوح من قصص الحياة جمالا

وتلق ما رسمته ريشه (كامل) مما يشوق روعة وكمالا
بالأمس كان مرنحا أطفالنا (١) واليوم رنح جهده الأبطالا
يستخلص العظة الكريمة جوهراً ويجود مغتبطاً، ولا يتعالى
فترى التألق فى حياة سطوره وترى الحياة بها تفيض جلالا
وتشم من عبق التفنن نفحة وتذوق من خمر البيان حلالا
وترى التصرف بالخوالد زادها خلداً، وزاد مآلها آمالا
يختار من قصص الورى مختارها كالنحل تعشق زهرها العسالا
فاذا أقل فما تراك محيراً واذا أطال فما تقول أطالا
سيان في انعامه ابداعه ما فات اكثار له إقلالا
فاذا اغتبطت من اطراد نشاطه كالنور حين يزيدنا اقبالا
فلقد غدا الأدب الجديد بجهده كلفا وصار بوده مختالا

رأى مجلة المقتطف

لم يكتف كامل كيلانى افندى بتضلعه من آداب العرب وتاريخها تضلعا يحسده و يغبطه عليه كثيرون من المتأدبين بل عمد الى الأدب الحديث ـ من غربى وشرقى ـ يستخرج من الأول درره و ينسج فى الثانى على منوال الأول .

فاختار أشهر القصص القصيرة التى وضعها « بوكاتشو »

---

(١) اشارة الى « قصص الاطفال »

وهى تصور حالة المدن الايطالية المشهورة ـ كالبندقية وفلورنسا وغيرهما ـ فى العصور الوسطى تصويراً قصصياً يأخذ بمجامع القلوب ويستهوى عقول القراء بما فيه من النكات المستملحة والحكم المطوية فى تضاعيف الحوادث والسطور والمفاجئات الغريبة. اختار بعض هذه القصص ونسجه في برد عربى قشيب. إذ لا يخفى على قراء المقتطف أن أسلوب «الأستاذ الكيلانى» من الأساليب العربية المتينة التى يراعى فيها سهولة البيان ودقة التعبير بحيث لا يضفو الكلام على المعنى المقصود.

وأضاف الى هذه القصص حكايات أخرى اختارها من روايات الصور المتحركة وغيرهما، أو وضعها حتى تلائم البيئة المصرية ونشرها فى مختلف المجلات العربية ثم جمعها فى هذا الكتاب.

ولقد أجاد الدكتور أبو شادى في وصفه فى قصيدة نشرت فى أول الكتاب، قال:

«يختار من قصص الورى مختارها   كالنحل تعشق زهرها العسالا
فاذا أقل فما تراك محيراً   وإذا أطال فما تقول: أطالا»

رأى مجلة الحديث

يعرف قراء «الحديث» — الذين تابعوا تلاوة القصص التى نشرها الكاتب الكبير الأستاذ كامل كيلانى ـ أية دقة يتحراها

الأستاذ فى نقل طريف القصص الغربية الذائعة الشهرة والكبيرة المغزى .

ويعرفون -إلى جانب هذه الميزة- سمو أسلوبه وما امتاز به من النقاء والسهولة ، فهو يسقيك أعذب الآيات التى تسيغها النفوس الظمأى إلى كل رائع جميل .

وها بين أيدينا الآن مجموعة مختارة من أقاصيص موضوعة ومعربة ومأخوذة عن لوحة السينما ، يجد القراء - فى كل قصة - هذا المرمى الاجتماعى الذى يقصده القاص والذى ينتقل بك - من محاولة إلى أخرى - حتى يقف بك أمام حقيقة تسيغها نفسك وتفتح أمامك ألوانا من التفكير فى مظاهر الانسانية المتشعبة الميول والمختلفة الطرق .

والقصص الموضوعة - بقلم الأستاذ - ترمى إلى تصوير الحياة القومية فى مصر وبعض مظاهرها الاجتماعية ، وهى مظاهر بدأ شباب المدرسة الحديثة بتصويرها صادقة من كل لبس وغموض والقصص المأخوذة عن السينما هى خلاصة مختارة من أروع ما عرض على اللوحة البيضاء يزيدها قيمة وضعها بقلم الأستاذ وتفكيره الخصب .

أما المعربة فلا نزيد قراء « الحديث » تعريفا بقصص « بوكاتشو » فحسبهم ما اطلعوا عليه من القصص التى نشرناها له فى أعداد مختلفة .

والكتاب مملوء من هذه العناصر القوية ، وقد زينت كل قصة بمختلف الصور الجميلة التي تفسر أكثر ما يمر بالقصص من حوادث .

وقد قدم الكتاب زعيم شباب المدرسة الحديثة الكاتب المفكر اسماعيل مظهر بك صاحب مجلة «العصور» الممتازة، بكلمة عن نشأة القصص هي في نظري - وليتها كانت بحثاً مطولا لا كلمة مقتضبة - من أبين ما قرأته في العربية عن نشأة القصص وتطورها في عصورها المختلفة والأغراض السامية التي تحويه سطورها

إن « مختار القصص» ذخيرة أدبية يشوق كل أديب الاطلاع عليها ، فنحث قراء « الحديث » على اقتناء هذه الذخيرة المطبوعة أنقى طبع وأجمله ونقدر - بكل اخلاص - جهود الأستاذ الكيلاني الذي ماقتيء يغذي الأدب العربي أدسم غذاء ، مؤملين أن يوفق إلى اخراج بقية القصص المدخرة في جعبته - في كتاب آخر .

رأى مجلة الحاوى

أديب متزن من أدبائنا المشهورين ، ينشر الأدب للنافرين منه في قصص صغيرة يحسن اختيارها ، ويجيد نسج بردها ، ليجد القارئ في موضوع القصة تسلية ، فينساب

الكاتب إلى نفسه بشتى أنواع التاديب والتهذيب لصقل النفس

وكما أن الدواء المر ييسر الطبيب للمريض تناوله ، بوضعه فى غشاء من الحلوى ، فكذلك «كامل كيلانى» يجعل القصة غشاء الأدب ، ويجعل الأدب غايته من القصة .

والجمهور الذى دهمته جماعات من الناشرين ، بدعوى أنهم كتاب وأدباء ، أصبح سيء الظن بكل ماينشر وبكل الناشرين ؛ عدا المعروفين من الأدباء والكتاب .

وكامل كيلانى من مشهورى كتابنا المعدودين ؛ ونفثات قلمه فى عالم الأدب كضوع العطر ينشره النسيم .

والحاوى واضح الاعجاب (بمختار القصص) ....

....

رأى مجلة العصور

يعرف قراء (العصور) وغيرها من المجلات العربية نفثات يراعة الكاتب المتفنن الاستاذ كامل كيلانى فهى فى غنى التعريف بها وإن تنوعت وكثرت . ولكن الذى يستحق التنويه به هو نشاطه الذى لا يكل ، الجدير بأن يحتذيه أدباؤنا . الذين يؤثر أكثرهم السخط والتذمر من غير انتاج مشرف

وآخر ما استمتعنا به من تصانيف الأستاذ كامل كيلانى كتابه

الشائق مختار القصص الذي عنيت بنشره مكتبة الوفد جامعا نخبة ممتازة من قصص مصرية وضعية وأخرى مترجمة عن « بوكاتشو » وغيرها ملخصة عن السينما فكان متناسب الوضع والاختيار والتنسيق جميل الطبع، كثير التوضيح نبيل الغاية بما فيه من نزعات تهذيبية سامية مبسوطة فى غير مواربة، مكشوفة للمبصريين النابهين

فاذا هنأنا الاستاذ كامل كيلانى بمصنفه هذا البديع فاننا فى الوقت ذاته نهنىء معه أنصار الادب الجديد وسوف تنشر فى العدد التالى مقالا نقديا ممتازا لكتابه من قلم الناقد المعروف الاستاذ على محمد البحراوي فنكتفى الآن بهذه الاشارة الحقة بجهده المتسامى وفضله المتواصل على الأدب العصري.

رأى مجلة الجديد

الأستاذ كامل افندي كيلانى كاتب مجيد، وأديب معروف يمتاز على كثير من الادباء بتوافره على خدمة التاليف والأدب، لا يعروه من ذلك ملل ولا إعياء.

فهو صاحب « نظرات فى تاريخ الادب الاندلسى » وشارح « رسالة الغفران للمعرى » . ومؤلف « قصص للأطفال » . ثم هاهو ذا اليوم يخرج لنا كتابه « مختار القصص »

وقد تصفحنا كتابه الجديد، فألفيناه يضم بين دفتيه مجموعة ممتازة

من قصص مؤلفه التى نشرت له أمهات الصحف والمجلات كثيرا منها ، والتى جاد خياله ببعضها، ونقل البعض الآخر عن اللغات الاوربية

ولا نغلو اذا قلنا إن شبابنا ، أحوج ما يكونون فى قراءة القصص الى هذا النوع الذى عنى به الاستاذ الكيلانى وأجاد وضعه فهو يتضمن كثيرا من الحكم والعظات التاريخية . والنوادر اللطيفة . كل ذلك في حسن ديباجة وبلاغة أسلوب

فنحمد للمؤلف دأبه على خدمة الأدب ، وحسن اختياره فيما يكتب أو ينقل الى العربية . . .

رأى مجلة الاخاء

الأستاذ كامل افندى كيلانى كاتب قدير متفنن حذق الأدب العربى حتى أصبح فيه لا يشق له غبار ، ولا يجارى بمضمار ، ونحن لا نلقي هذا القول جزافاً ولا نغلو فى كلامنا ـ كما يغلو كتاب هذه الأيام فى تقريظ الكتب ونقدها ـ فان أمامنا من كتبه ما يؤيد قولنا ويدعم حجتنا : وقف حضرته على طبع ديوان ابن الرومى فشرحه شرحاً جلياً مرتكزاً على الذوق السليم والأدب الصحيح وأخرجه لنا فى حلة قشيبة تختال برواء الطبع ورائع التعبير . وهذا كتابه « الأدب الأندلسى » ـ وهو مجموعة محاضرات ألقاها فى الجامعة المصرية ـ يدل على قبضه على ناصية أدب العرب

وتضلعه المتين فيه ، وقد قال كل من طالعه: «ليس فى الامكان أبدع مما كان »

وقد رأى بنظره الثاقب أن الأدب العربى خال من قصص لصغار النشء تقوم ألسنتهم وتغرس فى عقولهم مبادىء قديمة للانشاء الصحيح، فوضع كتاب «قصص الأطفال» فسد بذلك فراغاً لم يستطع غيره ملأه . هذه المجلات الراقية ـ كالمقتطف والعصور والاخاء وغيرها ـ ملأى بنفثات يراعه الناضجة وأفكاره الرائعة وقد أبرز لنا كتاب «مختار القصص» فتهافت عليه القراء تهافت الجياع على القصاع وتخاطفته الأيدى وسرحت فى رياضه العقول تقطف من رائع أزهاره ويانع أثماره غذاء شهياً يطرب النفوس وينعش الصدور، ومختار القصص مجموعة نفيسة من روايات السينما وروايات بوكاتشو وروايات مصرية وضعها المؤلف مما يحدث بين سمعه وبصره من الحوادث الاجتماعية فصاغها فى قالب شائق مملوء بالعبر والعظات

ومن أجمل ما سمعناه من آراء الادباء فى هذا الكتاب القيم قول الأستاذ الأديب سيد أفندي ابراهيم حين علم مالقيه «مختار القصص» من الرواج الذي يستحقه:

«لقد كانت كل قصة منه كافية لترويج مجلة أفلا يكفي مجموعها لترويج كتاب؟ » . . . .

سليم قبعين

ونحن نثني على الأستاذ كامل أفندي ثناء طيباً ونوجه التفات القراء إلى مطالعة هذا الكتاب النفيس

رأى المصلح الكبير الاستاذ فريد وجدى بك(١)

. . . .

أما القصص البريئة التي يتخيل الكتاب وقائعها : ثم يضعونها فى قوالب أدبية تعالج من أمراض الصدور ، وتكشف عما استكن فى أحناء الضمائر وزوايا القلوب ، من العوامل الخفية التى لو أميط عنها الستار أفادت فى اصلاح الأخلاق ، وتقويم الطباع ، وتهذيب العادات ، فانها من أفعل الآلات في رفع مستوى الآداب فى المجتمعات ، ومن أمضى الذرائع فى محاربة الرذائل ، ومكافحة الرعونات . . . .

أدرك هذه الحقيقة كاتب كتابنا المجيدين ، وأديب من أدبائنا المبرزين « كامل أفندى كيلانى » فأخذ يستخدم هذه الأداة الأدبية بأقصى ما يستطيعه العامل الضليع من ناحيتها الصالحة فى تهذيب النابتة وتنشئتها على الفضائل تارة وفي تقويم المجتمع وترقيته تارة أخرى ، فوضع للأطفال قصصاً اقتبسها من كتاب « ألف ليلة وليلة » بعد أن صاغها صياغة تعتبر غاية فى الاجادة ، وحلاها بصور بديعة تستهوي الأطفال وتضطرهم إلى القراءة ؛ ووضع

(١) نشرت بصحيفة الاهرام

ـحيال ذلك للكبار مختارات وحلاها بالصور كسابقتها ، وفيها من أدب الغربيين كل طريف ممتع ، وقد صاغها فى عبارات أقل ماتوصف به أنها من السهل الممتنع.

والكتاب القيم الذى بين يدينا هو كتاب (مختار القصص) اشتمل على اثنتين وعشرين قصة اعتامها من مصادر ثلاثة:

أولها « قصص مصرية » و ثانيها « قصص السينما » . و ثالثها « قصص بوكاتشو » ، وفى هذه المصادر ينابيع فياضة بحكمة وأدب و ثقافة مجتمعنا فى أشد الحاجة اليها .

لسنا هنا فى مقام توفية هذا الأديب النابه حقه من الثناء فذلك يزيد عن نطاق عجالة مثل هذه ، لأننا منه حيال شخصية ممتازة تستحق الدرس من نواح متعددة ، و لا يناسب مكانتها الاجتزاء بتقريظها ، و لكنا بسبيل لفت الأنظار إلى هذا الضرب من العمل المنتج الذى توخاه أديبنا الألمعى « كامل أفندى كيلانى » بالمزج بين الأدب الشرقى و الغربى ؛ و إخراجه آونة من مجموعهما و آونة أخرى من كل واحد منهما ، قطعا لا يقف تأثيرها فى نفسيات القارئين عند حد . وهذا هو الذى رمى اليه مبتكر هذا الفن الأدبى المحبوب ، وهذا هو الأثر الجدير به .

لم تقف همة هذا النابغة عند هذا الحد فقدقام للأدب العربى بخدمة يسجلهاله تاريخه أبدالدهر ،تلك هى تلخيصه رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى وشرحها ، فكان بهذا العمل كمن أعاد الشبيبة إلى جسم لم تبق منه الشيخوخة إلا ذماء ، إذ حذف مالا يضر بكيانها حذفه ؛ وفسر ما أبهم من ألفاظها ،فأصبحت بذلك قطعة أدبية ترفل فى حلة الجدة ؛ بعد أن كان أدركها الهرم وتركت فى زوايا المكتبات لا يمسها إلا من أراد أن يرجع إلى الأشياء الأثرية .

وله أيضاً مجموعة محاضرات فى تاريخ الأدب الأندلسى ألقاها فى الجامعة المصرية أماطت عن وجه ذلك الأدب الرائع لثاماً كان أسدله عليه الاهمال المعيب ، لذلك المعين الثرار من الأدب الجزل.

وله شرح ديوان ابن الرومى الشاعر المبرز ، وقد كشف من غوامضه مازاده قيمة على قيمته

وخلاصة القول أن الأستاذ الكيلانى أبعد أدبائنا همة ، وأكثرهم اشتغالا ، فان أخذنا عليه هناة فهى افراطه فى العمل إلى حد أنه ينسى معه حاجات جثمانه ، فنحن نحيى فى هذا الأديب النابغة المقدرة الفنية مضافة إلى صدق العزيمة والاخلاص، وهذا هو كل ما يرجى من قادة الأفكار، وصاغة العواطف.

كلمة العالم اللغوى الكبير الأستاذ صادق عنبر

صديقي الاستاذ المبدع الالمعى كامل كيلانى أفندى

أخذت كتابك - كما أرجو أن آخذ كتابى يوم الدين - باليمين، فما كان فى يمينى إلا ما يكون الحظ لو تمكنت فجعلته كما أريد.

بل ما كان - من يدى إلى عقلى إلى روحى - إلا كما تكون الوردة الناضرة، تراها نسيجا فى أناملك حريره، ثم تعرفها طيباً فى أنفك عبيره؛ ثم تدركها شعراً في نفسك وحيه وتعبيره

سلمت للأدب وحفظت لصديقك

رأى الاستاذ الكبير أحمد الشايب

.....ورأيت فيه صورة صادقة لجميل اختيارك وكريم أدبك، كما رأيت فيه جهدا فذا يضاف الى جهودك المتواصلة فى خدمة الادب العربى فهو صورة حقه لآرائك فى الحياة ولفلسفتك الاجتماعية التى لاتواري ولاتنافق. . . . . . .

كلمة الاستاذ محمود أبى الوفا

نعم أحرزت بالقصص الفريد   خلودا بين أعلام الخلود

ليسلم «كامل» حتى يؤدي   رسالته الى الأدب الجديد

مؤلفات الاستاذ أبى شادى

الشفق الباكى

ديوان حافل واقع فى ١٣٣٦ صفحة جامع لشتى القصائد والمقطوعات العصرية المتنوعةمع دراسات قيمة لطائفة من كبار الكتاب . وهو مطبوع أفخر طبع ومزين بصور بديعة ، ومجلد بالقماش تجليداً نفيساً . ثمن العدد عشرون قرشاً خلاف البريد.

أوبرات أبى شادي

ثروة أدبية فنية من الشعر والغناء والتمثيل وهى تشمل إحسان والزباء ملكة تدمر ، وأردشير ، وبنت الصحراء وأخناتون ، والآلهة . ثمن العدد من كل أوبرا خمسة قروش خلاف البريد.

الطبيب والمعمل

أول مؤلف من نوعه فى اللغة العربية، يشتمل على أهم البحوث المعملية بحيث لا يستغني عنه الطبيب العصري ولا الصيدلى وهو الى جانب ذلك ذو فائدة عظيمة لمحبى الاطلاع ورجال الاصلاح الصحى . ويقع فى أكثر من ثمانمائة صفحة جامعة لخبرة المؤلف الاختصاصية فى أعوام عديده ، ومزدان بثلثمائة وستين شكلا ثمن العدد ١٥ قرشاً مصرياً خلاف البريد

مؤلفات متنوعة

معظمها تصانيف شعريه ما بين تاريخية ومدرسية وقصصية

وكلها تمتاز بروحها التجديدية وبحسن تاليفها ، وبما حوته من مباحث ممتعة وتحاليل قيمة ، فهى ذخيرة ثمينة .

وجميع هذه الكتب معروضة فى مكتبة (الوفد) .

الشعر النسائى العصرى

وشهيرات نجومه

اصدرت هذا التأليف القيم « مكتبة الوفد » بالقاهرة لتنتفع به مدارس البنات الابتدائية وضمنته سيرة نخبةمن شهيرات شواعرنا مع مختارات من اشعارهن ، متحرية أن تجمع مواد هذا الكتاب من أوثق المصادر ، وقد عنيت بطبعه أفخر طبع ولم تفتها العناية بتشكيل النظم تسهيلا لقراءته على الطالبات خاصة ومحبى الادب عامة وثمنه ٣ قروش

تصويبات

وقعت فى الكتاب أخطاء مطبعية قليلة جدا يدركها القارىء بسهولةلوضوحها فلا حاجه الى التنبيه عليها ، ونحب أن يستدرك القارىء الكلمات التالية فى ص ١١٢ فى السطر الاول فقد ورد كلمة عيشى وصوابها عيش وكلمة تشدخها وصوابها تشدخها وجاء فى ص ٩ فى السطر الأخير : «برداءقطرى» وصوابها «بردا قطريا »

ص

٣ ثورة الدروز او حرب الاطرش

٣ الفرتوست أو بين أجفان البؤس

١٠ تاريخ أساس الشرائع الانجليزيه

١٠ تحرير المرأة لقاسم بك أمين

٦ الموجز الوافى فى علمى العروض والقوافى

١ الامتيازات الاجنبية

٣ بيضة الفرخة. بحث تاريخى

٤ نفثات مسجون

٥ آمال المحبين

٢٠ ديوان الشفق الباكى

٥ طبائع الاستبداد

٦ الطلاق والوفاق

٢ بريد الأحد مجموعة روايات مختلفة

٤ حورية الفلك : رواية :

١١ ربة الجمال ١—٢

٥ حديث القمر للرافعي

١٠ المساكين

ص

٥ جمال الاستقلال : ادب ومواعظ

٤ نساء العالم

٤ رسائل الحب أو قصص النساء

٣ حديث البؤساء

٢٥ النجوم الزاهرة فى تاريخ مصر ١ — ٢

٢٥ تدرج المذاهب فى التربية لشكري افندى (بدون تجليد)

٣٠ تدرج المذاهب في التربية لشكرى أفندى مجلد

٥ نظرات فى الأدب

٥ رسائل أبى العلاء المعرى

٥ أدب العرب

٢ الحب فى ميدان الوغى : رواية

١٥ المسألة المصرية والوفد

١٠ مصر الحديثة قبل الاحتلال

٣ أنشودة الحب

٣ رواية عمرو بن العاص

٥ يوليوس قيصر للسباعى

٥ اسماعيل باشا فى ظلال الاهرام

٥ الاديات العصرية

ص	
٣	اللؤلؤ في الأدب للبكري
٥	المعاملات : كتاب اجتماعي
٢٠	سلافة العصر في شعر الشعراء في مصر
٣	الفوائد في الصلوات والعوائد
٣	ديوان عمر بن الفارض
٧	كتاب الدروس النحوية على هيئة سؤال وجواب جزءان
٨	الجغرافية الاقليمية :أوروبا
٤	السر الغامض: حافظ نجيب
٥	التعاون : للدرديري
٥	التبليغ الى مشايخ الهند
١٢	كتاب الاستاذ لتعليم الفرنسية ٣ أجزاء
٣	العاطفة والانتقام
٥	رواية قصص البردي
١٠	منكر ونكير لولى الدين يكن
٣	المرأة في عهدها القديم والحديث
٢٥	على اطلال المذهب المادى ٣ أجزاء
٦	دستور التغذية

ص	
١٠	سحر البلاغة
٣	تاج البلاغة
٥	ليالى الأسى : رواية
٥	لويس السادس عشر رواية
٥	هنرى الثامن
٥	اسرار النصر
٣	« الشوارع والعصور
٤	« الدنيا
٥	كتاب مذهب النشوء والارتقاء
١٥	فلسفة اللغة العربية وتطورها
١٥	كتاب الخلافة باللغة الفرنسية
١٥	« « « الانجليزية
٤	الانتقام الرهيب : رواية
٤	خيل اللصوص : رواية
٥	فتاة اسرائيل
١٢٥	حقائق الاخبار عن دول البحار كتاب قيم تاريخى فى ٣ اجزاء
٨	مذكرات لص تائب جزءان
	ملك الجواسيس جزءان
٣	بدائع الخيال للخانجي

يطلب من

مكتبة الوفد
بأول شارع الفلكي بمصر

مختار القصص

أسلوب طريف فى القصص مختار من ثلاثة كتب للمؤلف . وهى : « مختار قصص السينما » و « قصص مصرية » و « قصص بوكاتشو » محلى بالصور ومطبوع أفخر طبع . فى أكثر من ٢٠٠ صفحة من القطع الكبير

يظهر قريباً

حكايات للأطفال

بقلم

كامل كيلانى

